اقرأ

رجاء النقاش

التماثيل المكسورة

دار المعارف

التماثيل المكسورة

تأملات في الأدب والحياة

رجاء النقاش

التماثيل المكسورة

تأملات فى الأدب والحياة

اقرأ ٢٤٤

دار المعارف

اقرأ ٢٤٤ – أبريل سنة ١٩٦٣

ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف – ١١١٩ كورنيش النيل – القاهرة ج. ع. م.

من الحياة . . .

هذه صور من الحياة . . . عرفت بعضها عن طريق التجربة المباشرة وعرفت بعضها الآخر عن طريق قراءاتى . والمشكلة الرئيسية فى هذه الصور كلها هى المشكلة التى شغلتنى سنوات طويلة ، فانصرفت إلى التفكير فيها بعقلى وقلبى معاً . وهى نفسها المشكلة التى وجدت الكثيرين يفكرون فيها مثلى وربما أكثر منى . . . ويبحثون لها عن حل .

وهى مشكلة لا يمكن تحديدها فى كلمة واحدة . إنها مشكلة الخصومة مع الحياة . . . هذه الخصومة التى لم يفلت منها إنسان أبداً . حتى الذين توفرت لهم أسباب السعادة الكاملة من المال والصحة والحب وراحة البال ، حتى هؤلاء قد تعرضوا لتجارب وقفوا أمامها حائرين وحاولوا التخلص منها بسلام .

فكيف يعيش الإنسان فى سلام مع نفسه ، وفى سلام مع الناس ، ما هو الطريق إلى ذلك ؟ وما هى العقبات التى تقف فى الطريق ؟ وكيف يتصرف المهزومون فى معركة الحياة وكيف يتصرف المنتصرون ؟ . . ما هو الأمل ، وما هو التفاؤل ، ما هو التشاؤم . . ما هو الأسى . . . ما هو الفرح ؟

كل هذه الأسئلة هى التى حاول هذا الكتاب بما فيه من صور نفسية أن يجيب عليها .

والمسألة فى النهاية . . . هى مجرد محاولة ، لا تزيد فى أنجح صورها عن أن تكون مجموعة من « أقراص الأسبرين » هدفها تخفيف ذلك المرض القديم . . . الحزن البشرى والخصومة مع الحياة .

وحتى هذه « الأقراص » لست أنا صانعها ، فأصحابها الحقيقيون هم أبطال هذه الصور النفسية ، أو الأساتذة الكبار الذين عشت معهم ولهم فترة من الحياة أمثال : تشيكوف وتولستوى .

فإذا خفف عنك هذا الكتاب شيئاً من صداعك النفسى فاشكر أصحاب « الصيدلية » الحقيقية من الفنانين أو من نماذج الناس المختلفة .

وإذا كانت النتيجة عكس ذلك . . . فلا تلم أحداً غيرى . . . ثم اغفر لى . . . !

رجاء النقاش

التماثيل المكسورة

«عند ما يصبح الامتياز محنة»

هذا النوع من الناس نقابله كثيراً فى الحياة . .

عندما يرى فتاة جميلة يبتسم ابتسامة لها مغزى ، وتسأله لماذا تبتسم فيقول لك : يا عم . . إنها فتاة سيئة السلوك، وإذا رأى وجهاً ناجحاً فى التليفزيون قال لك إنه لا يستحق الشهرة ، لقد وصل إلى مركزه بالمصادفة أو النفاق، وإذا قرأ لكاتب ناجح كان همه الوحيد أن يثبت لك أن هذا الكاتب فاشل لسبب من الأسباب .

فما هو سر هذا الشخص ؟

إنه نوع من الناس يكره الامتياز ، ويعادى التفوق ، ويخاف خوفاً عميقاً من أن يرى شخصاً يتمتع بموهبة لامعة . . لا يحب أن يرى تمثالاً جميلاً تنظر إليه العيون بإعجاب ، وتلتف حوله القلوب بأعمق ما فيها من عاطفة . . ولكنه يستريح تماماً إذا حطم هذا التمثال ورآه مجموعة متناثرة من الأحجار . . منظر الضعف يريحه ويسعده ، وأوراق الخريف عنده أحلى من زهور الربيع ، ومنظر الدمار يطمئنه على أن العالم بخير : ليس فيه تفوق ولا امتياز .

إن تمثال فينوس الجميلة الساحرة الكاملة يضنيه ولكن منظر فينوس ذات الذراع المكسورة يريحه .

هذا النوع من « النفسيات » يعادى الامتياز فى كل صوره ، سواء كان هذا الامتياز وجهاً جميلا ، أو شخصاً محبوباً صادقاً ، أو عملا ناجحاً . والدافع الأساسى الذى يحرك هذه النفسيات هو أن أصحابها لا يملكون صفة جميلة تميزهم عن الغير ، وهم فى الوقت نفسه لا يعملون ولا يجتهدون لاكتساب هذه الصفة الجميلة . . ولكنهم يفعلون مثل الصرصار فى القصة المعروفة . . حيث يلعب فى الصيف بينما يجمع النمل قوته استعداداً للشتاء . . وعندما يجىء الشتاء بعواصفه وأزماته لا يجد الصرصار ما يأكله ، لأنه لم يعمل ولم يجتهد . . بينما يكون النمل آمناً من الجوع لأنه عمل فى الصيف واجتهد .

ولكن الصرصار فى القصة المعروفة يطلب من النمل أن يعطيه بعض الطعام . . أما هذا النوع من النفسيات فلا يجد مخرجاً لأزمته إلا فى كراهية « الامتياز » والعمل على تشويه الممتازين وتحطيمهم . . وفرش طريقهم بالأشواك .

فالشخص الممتاز هو نقد غير مباشر لأصحاب هذه « النفسيات » . . يبرز ما فيهم من نقص ويكشف إلى أى حد يعيشون هم على سطح الحياة .

وهذا الشعور يثير القلق ، بل إنه يثير الخوف . . فكيف يمكن التغلب على نار هذا الشعور المحرق ؟

كيف يمكن الوقوف أمام النجاح بدون نجاح ، وأمام القوة

بدون قوة ، وأمام الجمال بلا جمال يوازيه ؟

إن الطريق إلى ذلك هو نقد الشخص الممتاز وتشويه صورته ، وإقناع النفس أولا ثم إقناع الناس بأنه شخص لا أهمية له . . بل إن هذا العمل يصبح رسالة كبيرة ، هى إثبات العجز فى الشخصيات الممتازة ، والبحث عن أخطائها ، ثم افتعال هذه الأخطاء إن لم تكن موجودة فى الواقع .

وعندما ينهار الشخص الممتاز تستريح نفوس أعدائه الذين خلقهم امتيازه . . وتنطفئ نار الحقد ، ويعود كل شىء هادئاً مطمئناً لا تزعجه تلك القوة الخارجية المتفوقة .

ومن حقائق الحياة المؤلمة أن الشخص الممتاز نفسه يتيح الفرصة لمثل هذا الموقف ، فهو غالباً ما يكون منصرفاً إلى الأشياء الجوهرية فى الحياة ، لا يسمح لنفسه أن تهتم بالأشياء التافهة ، وهو لا يشعر بأى خطر لهذه الأشياء . . وكثيراً ما يتصور الناس على صورته ، فهم يفكرون فى الأشياء الجوهرية مثله ، ويحبون الجمال مثلما يحبه ، ويؤمنون بما يؤمن به من أفكار إنسانية ، وهو لا يتصور كثيراً أن أحداً يمكن أن يخطر على باله أى نوع من الغدر والخديعة . .

وهنا يمكن أن يكون فى الشخص الممتاز ما يصح أن نسميه « ضعف العظماء » . . وهو الضعف الذى يؤدى إلى عدم رؤية الآخرين رؤية صحيحة ، والعجز عن تصور انفعالاتهم الخفية السوداء وإدراكها .

ولذلك فكثير من الأفراد الممتازين يقعون فى فخاخ الحاقدين

عليهم بسهولة غريبة ، بل إنهم يساعدون ــ بدون إرادة ــ مساعدة رئيسية على خلق الأسباب التى تؤدى بهم إلى الكارثة ، والنهاية الحزينة . . ولم يسلم من هذا المصير إلا نوع من الممتازين الذين جمعوا إلى القوة فهماً واقعيًّا دقيقاً للنفس البشرية ، وما فيها من منعطفات ضيقة ودهاليز مظلمة .

ويقدم لنا التاريخ نماذج متعددة عن « محنة الامتياز » وعن سوء النهاية التى كان الممتازون الطيبون يصلون إليها عندما يقعون فريسة للحقد عليهم والإنكار لهم . . وهم عادة لا يسارعون إلى علاج هذه المشاعر ، بل على العكس : يساعدون على إشعالها بتصرفاتهم التى تمتلئ بالبساطة والسذاجة والطيبة ، والتى تمتلئ فى الوقت نفسه بالعظمة .

سقراط أبو الفلسفة الإنسانية مات محكوماً عليه بالإعدام ، وكان الذى قدمه إلى المحكمة هو رجل من أغنياء أثينا ووجهائها الذين ضاقوا بعلم سقراط وشهرته وحب الناس له . . لقد طمس وجود سقراط اسم ذلك الأثينى الغنى ، وجعله فى حياة أثينا صفراً على الشمال . . لم تنفعه ثروته ولا قصوره ولا عبيده . . فكان سقراط على فقره وبساطة حياته أقرب إلى الناس منه . . كان نجم أثينا اللامع ، وظلها الذى تستريح إليه النفوس كلما أصابها التعب ، وأرهقتها الحيرة .

ولم يفهم سقراط طبيعة الحقد الذى ثار ضده .

أما الأثينى الغنى فقد سعى بكل قوته لتحطيم سقراط واتهمه بأنه « خارج على دين أثينا مفسد لشبابها » . . ولم يفهم سقراط

أن هذا الاتهام ما هو إلا ستار يخفى وراءه (الخوف) الذى يحمله له بعض رجال أثينا وعلى رأسهم صاحب الاتهام . . ولم يسارع سقراط إلى علاج المشكلة بحكمة وبراعة ، ولكنه على العكس . واجه الاتهام بقوة ، وظن أن المسألة هى معركة فكرية يجب للحق أن ينتصر فيها .

ووقف سقراط فى المحكمة يدافع عن نفسه أمام جماهير أثينا ، وكلما ازداد توفيقاً كلما ازداد حنق القاضى عليه . . وكان القاضى الأول هو ذلك الأثينى الغنى .

دافع سقراط عن نفسه ببلاغة جميلة وشجاعة وحكمة . . برز امتيازه من جديد أمام الناس ، ولو انتصر سقراط فى هذا الموقف فإن معنى ذلك أن وجيه أثينا الغنى قد وصل إلى نهايته وانهار . . إن امتياز سقراط هو مطرقة دائمة مخيفة تهوى على رأس الأثينى الكبير .

قال سقراط للمحكمة :

« أنا جندى قديم ، ورجل طاهر الذيل ، شريف العيش ، وقد جعلت رسالتى هى محو الجهل الشائع فى أثينا ، وجعلت هدفى هو خير الناس ، وإنى أحاول دائماً أن أجعل من حياتى بركة على الأثينيين ولو أعفيت من الموت . . فإننى سأظل أجاهد فى نفس الطريق . . أما الذى يتهمنى فما هو إلا رجل غبى متكبر لا يعرف الحقيقة » .

وظل سقراط يتحدث ببلاغته الساحرة حتى أثبت أفكاره وبرهن عليها ، وعندما وصل إلى هذه النقطة كان فى

الوقت نفسه قد حدد نوع الحكم الذى صدر ضده بعد ذلك ... وهو الحكم عليه بالإعدام .

ويعلق برنارد شو على دفاع سقراط فيقول :

« إن إثبات سقراط لفكرته كان هلاكاً له وقضاء عليه . . لقد قضى عليه جهله بمبلغ ما أثاره عليه رجحان عقله فى قلوب الرجال من خوف وكره ، وما كان سقراط يحمل لهم فى قلبه إلا الخير ، وما كان يظن إلا أنه أسدى لهم كل معروف » .

وهكذا انتهى سقراط بتهمة باطلة . . شرب السم ومات ، انتهى لأنه كان صادقاً جميلا . . كان ممتازاً .. وكان كما قال عنه تلميذه وصديقه أفلاطون « إننى لن أتردد فى تلقيبه بأعدل رجال عصره » . . وقد أثار عليه امتيازه هذه « النفسية » التى تخاف الامتياز وتكرهه ، وتشعر أمامه بالرهبة ، ولا تستريح حتى تشوهه وتقضى عليه ، وحتى تجعل من التمثال الجميل تمثالا مكسوراً . . أجزاؤه كومة من التراب تخلو من التأثير والجاذبية .

وهذا نفسه هو ما حدث للفتاة الصغيرة المخلصة : جان دارك ، فقد حوكمت ، وأحرقت ، بعد أن قادت فرنسا إلى النصر وهى مهزومة تكاد تركع تحت أقدام الجيوش الإنجليزية .

لقد راحت « جان » ضحية الوفاق بين انجلترا وفرنسا .

ولكن محنة « جان » هى محنة الامتياز أيضاً .

كانت فى الحرب أقوى من الرجال ، وأصوب منهم رأياً ، وكانت خططها العسكرية تتفوق على خطط قواد الجيش الفرنسى .

وكانت ذات هدف كبير منحها الشجاعة والقوة ، فلم تكن تسعى لخدمة نفسها بل كانت تحاول خدمة بلادها على أن تعود إلى قريتها بعد أن يتحقق النصر . أما رجال فرنسا فكانوا يفكرون فى مصالحهم الشخصية ومراكزهم الرسمية .

وكانت صادقة صريحة ، تقول للمخطئ — فى عينه — أنت مخطئ ، ولذلك لم يحتملها رجال عصرها فقد كان امتيازها عبئاً عليهم ، وخطراً يهدد وجودهم ، ونقداً دائماً لهم . فأكبر من فيهم مركزاً وقيمة — وهو الملك شارل — كان يشعر أن آراءها أصوب من آرائه ، وأن شخصيتها أقوى من شخصيته . . إنه إلى جانب هذه الفتاة القروية الصغيرة يبدو عديم الأهمية تماماً . .

ولم تكن جان تعرف اللف والدوران والحيلة . ولذلك حرقها هؤلاء الذين خدمتهم وأحبتهم ، وكانت جريمتها التى لم تجد من يغفرها لها هى : التفوق عليهم . .

وقد علق برناردشو على حرق جان دارك وإعدام سقراط فقال :

« لقد كان لنابليون مقدرة مخيفة كالتى كانت لجان دارك وسقراط ، ولكنه لم يكن صريحاً مجاهراً برأيه . . وكان طموحاً فلم ينخدع فى " رواجه " عند الناس ، ولم يخطئ معناه أبداً ، وسئل مرة وهو فى قمة مجده وشهرته كيف يتصور حال الناس إذا تلقت نعيه فقال :

" سيتنفسون الصعداء " .

ومن أجل هذا مات نابليون على فراشه ولم يصب بسوء ،

فقد احتمى دائماً بالحذر ، وسوء الظن العميق بالنفس البشرية ، ومعرفته أن الذين يكرهون الامتياز ويخافون منه أخطر من الذين يحبونه ويتعاطفون معه .

وكان المسيح يدرك هذه الحقيقة النفسية التى تواجه « الامتياز » وتعمل على سحقه ، ولكن إدراكه لها لم ينقذه مع ذلك من العذاب الذى ذاقه على يد أعدائه والذين يتظاهرون بحبه وصداقته .

ومما يكشف عن فهم المسيح العميق لهذا الجانب من الطبيعة البشرية قول الإنجيل :

« قال بطرس : إن شك فيك الجميع فأنا لا أشك فيك أبداً ، قال له يسوع : الحق أقول لك ، إنك فى هذه الليلة قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات » .

وعندما بدأ اليهود يفتشون عن المسيح لإيذائه وتعذيبه أخذوا يبحثون عند « حوارييه » وأصحابه وتلاميذه ، وكان من بين هؤلاء « بطرس » أخلص التلاميذ والحواريين ، فأنكر معرفته بالمسيح ، وإن كان قد ندم بعد ذلك على هذا الإنكار وحمل رسالة المسيح من بعده !

وهكذا حدث ما توقعه المسيح فقد سيطر الخوف على « بطرس » ودفعه فى لحظة المحنة إلى إنكار أستاذه ومعلمه !

وهو يحدث دائماً لكثير من « الممتازين » إذ يقعون فريسة لتلك النفسية التى يخيفها الامتياز ويقلقها . .

وليست هذه الأمثلة التاريخية إلا نماذج مجسدة نجد صوراً

كثيرة منها فى حياتنا العادية . . فالمهندس الناجح ، والفنان الموهوب ، والفتاة الجميلة ، والشخص المحبوب . . كل هؤلاء يعانون هذه المشكلة . . فالخوف من الامتياز – كما يقول أحد علماء النفس – هو ظاهرة معضلة من ظواهر النفس البشرية .

وهى ظاهرة يشعلها الفشل والضعف ، ويخفف منها ويقضى عليها أن يحاول الإنسان احترام الامتياز ومحبته . . حب الشخص الممتاز معناه الانتماء إليه والارتباط به ، ولا يمكن لإنسان تعود إحساسه وذوقه على حب الامتياز والاعتراف به إلا أن يصبح فى نهاية الأمر إنساناً ممتازاً وجميلا . ولكن حب الامتياز عادة صعبة ، تحتاج إلى قوة نفسية كبيرة ، وإلى ظروف اجتماعية تتيح للجميع فرصاً متكافئة ، وتفتح الطريق أمام كل فرد يريد أن يعمل ويجتهد . . ولذلك فإن المجتمع كلما تقدم ، واتسعت فرص الحياة فيه كلما أصبحت مشكلة الفرد الممتاز أقل انتشاراً وعنفاً .

فالمجتمع المتقدم دائماً يحتاج إلى العناصر الممتازة ويعتمد عليها . . كما أنه يتيح الفرصة لكل فرد حتى يملأ حياته العملية وحياته النفسية بما يشغله . . وما يجعله راضياً عن الحياة غير ساخط على الآخرين .

ورغم ذلك كله فستظل الإنسانية تشكو من تلك النفسية التى تكره الامتياز وتخشاه ، فالامتياز قلق وتجديد وخروج عن العادة ، والناس تستريح للعادة القديمة حتى لو كانت سيئة ، على أن تحتمل هموم التجديد والابتكار .

ولكن الإنسانية ستظل فى الوقت نفسه تضع سرها وقوتها فى الشخص الممتاز الذى يدفع الحياة إلى الحركة ، وينير طرقاتها المظلمة ، ويغامر دائماً فى سبيل الكشف عن الشيء الغامض فيها . . حتى يسير من بعده الناس فى نفس الطريق .

والذين يكسرون التماثيل الجميلة أو يسعون إلى تشويهها قد ينجحون ولكن الحياة تعود من جديد فتخلق هذه التماثيل ليحبها البعض . . ويكرهها آخرون . . ولكى تكون دائماً الزهرة التى تنثر العطر للناس وتشرب العذاب .

* * *

اللذة الخطرة . . .

كان يقول لكل من يقابله :

– أنا موسيقار . . أنا عبقرى . . ولكنى لا أستطيع أن أكتب لحناً واحداً وزوجتى على ظهر الحياة . . إنها تفسد نبوغى . . وتقتل أحلامى كفنان .

وعندما يذهب إلى البيت الحزين الكئيب . . ينظر إلى زوجته فى نفور .. ثم يضربها . . وهى صامتة لا تتحرك . . لا تعترض . . لا تقول : آه .

وفى صمت تجرى من عيونها دموع . . ثم تقدم له ما يحتاج إليه . . فى طاعة الخادم الذليل .

وظل على هذه الحال سنوات طويلة .

وفى يوم عاد إلى البيت . . فوجد زوجته مكومة فى ركن مظلم . . وصرخ فى وجهها فلم ترد عليه . . ثم ركلها بقدمه . . ولكنها لم تتحرك .

وبدا يتردد . . وعرفت يده الحنان لأول مرة بعد عشرين سنة من الزواج . . وهو يهزها وينادى عليها .

ولكنها لم ترد . . لقد ماتت .

وفزع « العبقرى » الذى كان يشعر دائماً أن زوجته هى مصدر مأساته . . وخرج من بيته . . وظل يجرى فى الظلام حتى وقع على وجهه فى الطريق ومات .

هذه هى خلاصة القصة التى كتبها الأديب العالمى الكبير دستويفسكى . . والقصة تقدم لنا نوعاً من الشخصيات يقابلنا كثيراً فى الحياة .

فالموسيقار يعانى ما يمكن أن نسميه « عقدة الاضطهاد » . . وهو يقنع نفسه بأن زوجته تضطهده ، وتعطله عن الفن . . إنه يلقى عبء فشله على زوجته . . ويبدو فى نظر نفسه بريئاً خالياً من المسئولية ، ويتوقف عن كل شىء . . عن تدريب نفسه ، عن سماع الموسيقى ، عن محاولة الإنتاج . . فاللحن الوحيد الذى يعزفه باستمرار هو الشكوى . . والسخط على زوجته .

وتمر الأيام وهو واقف ، يتقدم من هم أقل منه فى الموهبة والكفاءة . . بينما هو يخفى عن نفسه حقيقة فشله . . وعندما تموت زوجته تفاجئه الحقيقة الرهيبة .. فالمشكلة فى داخله هو ، وسبب فشله هو أنه رجل بلا إرادة ، رجل لا يواجه المشكلة فى عينيها ، وإنما ينظر إليها من بعيد وبطريقة ملتوية . . وهو يخاف من الأسئلة الجريئة ، يخاف أن يعرضها على نفسه ويبحث لها عن إجابة . . ومن هذه الأسئلة الجريئة : لماذا لا أدرس الموسيقى بعمق ؟ . . لماذا لا أحاول أن أقضى وقتاً طويلا مع فنى وأحاول أن أؤلف ؟ . . لماذا لا أعرف ما يفعله الآخرون فى عالم الموسيقى لأستفيد منه وأضيف إليه ؟ . . ولم يسأل نفسه أبداً : ما هو ذنب زوجتى ؟ . . إنها تتحملنى وأنا قاس عنيف . . وهى لا تعترض أبداً ولا تشكو .

لم يفعل شيئاً من هذا . . وظل يخدع نفسه حتى انتهى

السبب الوهمى الزائف للفشل . . فعجز عن احتمال الحقيقة . . ومات .

كان طيلة حياة زوجته يشعر بعذوبة الشكوى ، ويعيش فى « لذة » عجيبة تصدر عن إحساسه بأنه مضطهد وشهيد . . وكان بحاجة عميقة إلى زوجته ، ليظل مستمتعاً بشعوره الزائف المريح .

وكثيراً ما يتعرض الإنسان للفشل ، وليس هذا هو الخطر الأساسى على حياة الإنسان . . ولكن الخطر يتركز فى طريقة مواجهة الفشل . . وأخطر مراحل الفشل هى أن يتحول إلى عادة ثم اقتناع . . وفى آخر الأمر يصبح لذة يمارسها الإنسان باستمتاع وسعادة .

ولذة الفشل تبدأ عندما يلقى الإنسان سبب فشله على الآخرين . . فيشعر أنه برىء أو شهيد ، ويبعد عن نفسه تماماً مسئولية الوضع الذى وصل إليه . . فلا يحس بالقلق الذى يشعر به إنسان ينقد نفسه ، ويراقب تصرفاته ويضع أمامه هدفاً يريد أن يحققه . . ثم يتعب ويعرق فى سبيل الوصول إليه .

إن الذى يضع مسئولية فشله على الغير ، هو إنسان يشعر أنه خال من العيوب ، وأن العيب يكمن فى الآخرين .

ويشعر الإنسان أيضاً أنه على جانب من الأهمية . . ولو لم يكن « مهماً » لما فكر الناس فى إيذائه والوقوف فى وجهه !

وكل هذه المشاعر لها سحر غريب على النفس . تسيطر عليها كما يسيطر المخدر . . وتضع الإنسان فى عالم ملىء بالأحلام

والأساطير . . عالم تتردد فيه كلمة : أنا . . بما فيها من جاذبية . وعذوبة . . تستريح إليهما الشخصيات الضعيفة . . التى تعيش حياتها . . بدون اتجاه أو هدف .

* * *

وقصة « دستويفسكى » هى لقطة صادقة من الحياة . . وكثيراً ما نلتقى بنفس النماذج على مسرح المجتمع .

عرفت طالبة فى الجامعة ، وأتيح لى أن أراقب تطورها خلال بضع سنوات .

كانت سمراء جذابة .. تتكلم بصوت هادئ خفيض . . وتتصرف أيضاً بهدوء ووداعة . . وكانت تعيش فى علاقة حب مع أحد زملائها بالجامعة .. واستمرت هذه العلاقة سنتين ثم انتهت بالفشل . . حيث تركها حبيبها وتزوج فتاة أخرى .

كانت ما تزال صغيرة وسيمة ، ولكنها انقلبت فجأة . . لم تعد تطيق البقاء فى بيتها لحظة . . وأصبحت تقتحم حياة زملائها وتفرض نفسها عليهم . . وتقضى أيامها بطريقة لا تحافظ فيها على شىء من سمعتها أو شرفها . .

ولم تعد تعرف الهدوء ، أصبحت كثيرة الكلام تعلن مشكلتها للجميع بصراحة .

وكانت تدرك أن سلوكها غريب غير طبيعى . . وتبرر ذلك فتقول : إنه هو المسئول عن كل شىء . . لقد تركنى بعد أن أحببته . . أنا لست مسئولة عن شىء . .

كان فشلها فى الحب « باسبور » إلى الفوضى والاستهتار .

وأصبح هذا الشعور عندها لذة . . لذة كبيرة .

وإذا أعطت نفسها بدون تردد للآخرين فكأنها تنتقم منه . . وعندما تظهر فى الأماكن العامة بسبب وبغير سبب فكأنها تتحداه . . وهى تخرج عن هدوئها القديم خروجاً صاخباً كأنها تقول له : لقد تخليت عن كل العادات القديمة التى كانت لى . . وكنت تحبها وتسعد بها !

رأيتها مرة فكانت على حافة الانهيار العصبى أو الجنون !

والغريب أنها فقدت جاذبيتها . . وأصبحت هذه السمراء وجهاً أصفر بلا جاذبية . .

لقد أخذت تستمتع بفشلها ، وتلقى مسئولية هذا الفشل على حبيبها القديم .. لم تحاول أن تعالج المشكلة وتفهمها .. ولم ترسم لنفسها خطة تسير عليها لتعيد إلى نفسها التوازن بعد خروج حبيبها من حياتها . . لتبدأ من جديد .

لقد فقدت إرادتها أمام الفشل ، وسمحت للجانب الساحر فى الفشل أن يسيطر على تصرفاتها !

واستراحت من التعب .

كانت فى الماضى تحاول أن تبدو جميلة مهذبة ، وكانت تقرأ لتبدو مثقفة وتبذل جهداً لتكون شخصية جديرة بالحب فى عين حبيبها .

أما الآن فلماذا تتعب أو تجتهد . . إنها تعيش حياة سطحية . . وتعقد كل يوم علاقة جديدة سريعة مؤقتة .

لقد وقعت فى اللذة الخطرة . . لذة الفشل . .

وذات يوم وصلت إلىّ هذه الرسالة . . كاتبها طالب بكلية العلوم بجامعة الإسكندرية . . تقول الرسالة :

« . . . إننى أعيش بلا أحلام . . والشباب فى مثل عمرى يعيشون دائماً على الأحلام . . كل واحد يحلم . . وأحلامه فيها من لون الضوء . . ومن رائحة الزهر . . وهى فى النهاية ترسم لوحة جميلة لحياة جميلة .

إلا أنا . . فلا أرى أمامى غير اللون الأسود . . غير الظلام والكآبة . . كثيراً ما أسأل نفسى : لماذا جئت إلى هذه الدنيا القاتمة المزدحمة . . ولماذا قدر لأمى أن تنجبنى فى الحياة . .

إن أحداث حياتى قصيرة ولكنها حاسمة ؛ لقد أحببت فتاة ، وكنت أخطو الخطوات الأولى فى شبابى . . ولكن هذه الفتاة أحبت أخى . . وأحسست بالهزيمة ، وجعلت من نفسى قوقعة ودخلتها ، وعشت فيها وحيداً صامتاً .

وتزوجت حبيبتى من أخى وأنا صامت وحيد .

ومرت الأيام، وأنا لست إلا حزيناً فى قوقعة . . ثم حدثت مفاجأة . . فمات أخى فى شبابه ، وعادت زوجته — حبيبتى القديمة — إلىّ وقالت لى : إنى أحبك . .

وسكت ! .

كانت بحاجة إلى « كفن » لتبادلنى الحب .

لقد أحسست فى كلماتها بالمرارة . . إن الموت وحده هو الذى دفعها إلى حبى . . وأدرت ظهرى لهذا الحب ، وأنا أرثى لها ، ولنفسى ولأخى الذى مات . . وللدنيا !

ولكن أحزانى تعود إلى عالم قديم ، إلى طفولتى . . فقد كنت طفلا صغيراً قبيح الوجه . . وكنت — على صغرى — أحس بالكراهية تحيطنى من كل جانب .

وعندما كبرت ودخلت المدرسة كان عدم ثقتى بنفسى يشلنى . . فكنت بليداً يضربنى المدرسون . . ويسخر منى التلاميذ .

وكثيراً ما أقرأ أن الأطفال أكثر الناس فى الدنيا براءة وطهراً . . صدقنى : إن الأطفال أكثر كائنات الله أنانية وقسوة ! . . لقد لقيت فى طفولتى منهم الكثير ! !

وعندما كبرت بدأت أفهم كلمات كنت أسمعها من أمى . . ولم أكن قبل ذلك أفهم منها شيئاً .

لقد سمعت من أمى كلمات غريبة . . كانت تقول لى : لقد صنعت المستحيل لعدم إنجابك . . ولكن الله كان يريد لى التعاسة . . فولدتك بالرغم منى .

أى أننى جئت إلى هذه الحياة عبئاً ثقيلا على أمى !

وهكذا تمضى بى الحياة لا أكاد أخرج من القوقعة التى أعيش فيها حتى أعود إليها من جديد . . وجدران قوقعتى صمت ووحدة وشك عميق فى قيمة الحياة ومعناها !

وهأنذا أمشى مع التيار . . تدفعنى الأحداث ولا أدفعها أبداً . . نفسى ضعيفة جدًّا . . أبكى لأتفه الأشياء !

وأحياناً أسأل نفسى : هل لى من أمل . . هل لى ؟!».

وعندما قرأت هذه الرسالة شعرت أن صاحبها قد صنع من

فشله . . قصيدة ، وأخذ يتغنى بها بينه وبين نفسه .

لقد وقع هو الآخر فى « لذة الفشل » فهو وحيد مضطهد. والدنيا تظلمه . . ووجهه قبيح . . وحبيبته لا تحبه إلا إذا دفعتها كارثة إلى حبه .

لم يفكر فى مشروع واحد يتعلق به . . كأن يتفوق فى الدراسة . . أو يقرأ ويكون لنفسه شخصية ناضجة . . أو أن يبحث عن فتاة أخرى . . عن حب جديد . . ولكنه اختار أن يقتات من أحزانه ويشرب من دموعه .

لقد كانت أم المسيح تستنكر أن يجىء إلى العالم من غير أب . . ولكنه جاء وغير الدنيا . . وكان سقراط قبيح الوجه . . ولكنه كان أنشودة « أثينا » يتغنى بها الجميع . . بما فيهم حسان المدينة . . وكان أبو « دارون » يقول عنه إنه « عار العائلة » . . ومع ذلك فقد ظل يعمل ويجتهد . . حتى أصبح ألمع اسم فى العائلة ، بل أصبحت العائلة تنسب إليه .

إن الحياة لا تعطى سرها وسعادتها بسهولة . . وعلى الإنسان أن ينظر إلى حياته على أنها مشروع ، يجب أن يعمل على تحقيقه وتنفيذه . . وكما يقوم المهندس ببناء البيت . . فيضيف كل يوم شيئاً جديداً إليه حتى يتم ، كذلك ينبغى أن يفعل الإنسان : أن يضيف كل يوم إلى حياته شيئاً جديداً . . أن يقرأ صفحة مفيدة . . أن يقول كلمة طيبة . . أن يراقب نفسه ويسألها : إلى أى حد أنا نافع للحياة . .

وهناك حقيقة هامة.. تلك التى عبر عنها أحد المفكرين فقال :

« إن الرضا الشخصى ينبع عن هدف يخرج عن نطاق شخصية الفرد » . مثل العمل . . مثل الإيمان بشىء . . مثل الحب . . مثل محاولة تربية الشخصية وجعلها مفيدة نافعة .

والفشل ليس نهاية للحياة . . بل هو تجربة مفيدة ، يجب أن نخرج منها بنتيجة لنصل بتجاربنا الجديدة إلى شاطئ النجاح .

أما أن تضع يدك على خدك . . وتمشى على الرصيف . . ثم تقضى ليلك على مقهى أبله . . ليس فيه إلا الضجيج والبلادة . . وبعد ذلك تنتظر أن تتغير حياتك بقفزة مفاجئة . . فهذا خطأ لا تسمح به الحياة .

وإن لذة الفشل ساحرة . . خاصة عندما تصبح عادة . . تخدع . . وتقتل الإرادة وتملأ حياة الإنسان بالأوهام . . والفشل لا يكلف . . لأنه حرية وراحة . . فلن تفكر فى قيود تحاول أن تتخطاها ولن تتعب نفسك فى خلق حياة إيجابية .

ولكنها لذة خطرة . . تؤدى فى النهاية إلى هدم الحياة بقسوة ومرارة .

لقد عاش الأديب العالمى تشيكوف حياة صعبة قاسية وصفها هو نفسه مرة فقال : « كان أبى من رقيق الأرض ، وكنت أشتغل بالبيع فى أحد الحوانيت ثم بالغناء فى الكنيسة ، ونشأت على احترام السادة وتقبيل أيدى القساوسة ، وتقديس آراء الآخرين ، والتعبير عن عرفان الجميل إزاء كل لقمة أصيبها . . كنت كثيراً ما أجلد وأدور هنا وهناك وأضطر إلى

النفاق . . لا لشيء إلا لشعوري بالتفاهة وضآلة الشأن » .

ولكنه لم يقف ولم يستسلم . . .

« وقد بذلت مجهوداً عنيفاً لأعصر مشاعر العبودية من نفسي قطرة قطرة . . حتى استيقظت ذات صباح جميل فاكتشفت أن عروقي لم يعد فيها أثر لدم ذليل ، وأنها تفيض بدم إنساني حقيقي » .

فابحث في نفسك عن هذا الصباح الجميل . . ولا تستسلم أبداً للذة الفشل . . تلك اللذة الخطرة .

* * *

الأمريكى الحزين

أمريكا هى بلد الهولاهوب والجاز والناس الذين يسرعون فى الأكل والكلام والحركة ولا يجدون وقتاً للهدوء والتفكير . . إنها مهووسة بالضجة ، وهى كل يوم تفكر فى تقاليع تغزو بها العالم . .

وأمريكا هى بلد ناطحات السحاب والأضواء التى تلغى الفرق بين الليل والنهار . . وهى بلد الإعلانات . . كل شىء فيها خاضع للإعلان حتى دور العبادة . . وتستطيع أن تقرأ هذا الإعلان فى بعض شوارع نيويورك عن إحدى الكنائس :

« يرافق الصلاة موسيقى رائعة ، وسائل الراحة مؤمنة » .

وإعلان آخر بالنيون عن كنيسة أخرى : « بعد الصلاة يعرض فيلم ملون يصور صعود الرسل تصويراً صادقاً » . .

وعشرات الملايين فى أمريكا يعيشون هذه الحياة ويتحمسون لها . ولكن نظرة عميقة تخترق هذه الزحمة وتنظر إلى القاع تجد شيئاً مختلفاً . .

إن الصخب والضجيج يخفيان حزناً عميقاً يأكل قلب أمريكا . .

لقد وقف مهندس فنان ذات يوم فى نيويورك وقال : « هذه مدينة مليئة بالزينة . . لكنها زينة مفجعة » .

وقد عبر هذا المهندس عن الحزن العميق الذى يعيش فى قلب أمريكا ، الإنسان هناك يحس بالضياع وسط الزحام والأضواء وناطحات السحاب ، ويحس بالضياع إذا فكر فى تلك المشاكل الكبرى التى لا تجد الحل ، مثل مشكلة ملايين الزنوج المضطهدين الذين ينظر إليهم الأمريكان على أنهم حيوانات . .

ففى الحرب العالمية الثانية اشترك الزنوج فى القتال ولعبوا دوراً كبيراً فى كسب الحرب ، وذات يوم عادت كتيبة زنجية إلى أمريكا بعد أن أسرت جماعة من الألمان . . وفى أمريكا كان الأسرى الألمان يتناولون طعامهم فى المطاعم أما الجنود الزنوج فكانوا يذهبون إلى المطبخ .. ومن الذى صنع هذا الوضع ؟

الأمريكان أنفسهم . . وقد احتج الزنوج على ذلك ، وانتحر جندى تعبيراً عن هذا الاحتجاج . . ولكن ما تزال المشكلة قائمة حتى اليوم . . يعانيها الزنوج فى ولايات الجنوب بأمريكا الشمالية . . وفى حى «هارلم» بنيويورك أكبر مدن أمريكا !

وهناك أيضاً مشكلة العمال الذين يتعطلون فى مواسم مختلفة ، وتبلغ نسبة هؤلاء العمال أحياناً عشرة ملايين كانوا يتجمعون بالآلاف تحت الكبارى ويعانون ألواناً من الضياع والتشرد . . على أن المشكلة الكبرى التى تفرض نفسها على معظم البيئات الأمريكية هى أن الآلة تسيطر على الإنسان وتسبقه فى كل شىء ، ولذلك فإن المدينة الأمريكية هى فرن ملتهب يبتلع الإنسان ولا يعطيه فرصة للاستمتاع بصداقة أو حب أو فن . . أو بأى شىء عميق آخر . .

وبين الحين والحين يظهر نوع فريد من الأمريكان ليكشف للأمريكان أنفسهم وللعالم ذلك الحزن العميق الذى يعيش فى هذا البلد المجنون بالسرعة وعدم المبالاة .

إن هذا النوع هو الأمريكى الحزين . . الأمريكى الذى قاسى حياة مجتمعه فامتلأ قلبه بالأسى لأنه لم يجد فى هذه الحياة تلك المعانى الإنسانية الكبيرة التى تجعل الإنسان يحتمل وجوده ويسعد به . .

من هؤلاء النادرين أمريكى حزين ملأت شهرته العالم ، وأساء الكثيرون فهمه ، حتى أمريكا نفسها جعلت منه صورة مائعة خليعة . . ذلك هو جيمس دين . .

وقد بلغ من خطورته وأهميته – كظاهرة فى المجتمع الأمريكى – أن عكف على دراسة حياته وأزماته كثيرون فصدر عنه عدد كبير » من الكتب .

وحتى وقت قريب كان هناك كل أسبوع ألفا رسالة تكتب إلى جيمس دين بعد وفاته ، يكتبها شبان وفتيات يتصورون أنه لم يمت .

وفى أمريكا اليوم ٨٤ نادياً تحمل اسم جيمس دين وتضم عدداً من الشبان والفتيات يزيد على ٤٠٠ ألف عضو . .

فمن هو جيمس دين على حقيقته ؟

. . كانت أمه فلاحة عادية وكان أبوه صانعاً متواضعاً . . وخلقت له أمه فى صباه جوًّا من الحنان الغامر ، فكانت تجيب له كل مطالبه ، وقد تعود عندما عرف الكتابة والقراءة أن يسجل

كل ما يريده فى « أچندة » صغيرة تراها أمه فى آخر الشهر فتحقق له كل ما فيها .

وماتت الأم الحنون وهو فى الثامنة من عمره بعد أن أصيبت بسرطان فى الرئة .

وكانت فجيعة للصبى الصغير ، لم يعرف بعدها — وطول حياته — طعم الحنان ، لقد تركته أمه لعالم شديد القسوة ، لا يوجد فيه من يهتم بالآخرين . . كل إنسان يهتم بنفسه ولا يفكر فى الغير . . حتى أبوه . . لقد تزوج بعد أمه . . « وكان يزيدنى شقاء أن أرى فى حجرة أمى امرأة أخرى » .

وكان يضع خصلتين أخذهما من شعر أمه قبل أن تدفن تحت وسادته ، ويحملهما معه فى الصباح بين أوراق كراسته وهو ذاهب إلى المدرسة . . وكان تلميذاً شديد العزلة ، يبكى كثيراً . وأحياناً يبكى أثناء الدروس . . « لأن أمه غير موجودة فى هذا العالم » . . لقد كان شعوره « باليتم » هو الشعور الأساسى الذى ظل مسيطراً على حياته حتى مات . .

ثم يذهب إلى الجامعة ويهرب منها ، إنها لم تعطه شيئاً يريحه ، ولكنه يكتشف فى الجامعة أنه يستطيع أن يمثل ، ويعطيه أستاذ من أساتذته توصية إلى المخرج المعروف « إليا كازان » ويفتح أمامه « إليا كازان » طريق المجد .

ويمثل جيمس دين بطولة فيلم « شرقى عدن » وكان البطل فى الرواية يعانى شعور اليتم والوحدة ويشعر بأن حياته « خالية من الحب » بعد أن هجرت أمه بيت الزوجية منذ طفولته . .

واستطاع جيمس دين أن يمثل هذا الدور تمثيلا رائعاً لأنه يجد نفسه فى الدور .

ثم مثل بعد ذلك بطولة فيلم آخر هو « ثورة بدون سبب » . . وكان دوره أيضاً هو دور شاب مراهق تخنقه الوحدة ويحاول أن يدافع عن نفسه أمام مراهقين آخرين يسخرون منه ويحاولون أن يسيئوا إليه ويجروه خارج عزلته !

وفى سنة ١٩٥٤ التقى بالممثلة الإيطالية الشابة« بيير أنجلى »، وأحبها جيمس دين ، أحبها بعنف وحرارة ورأى فيها طريقه الوحيد للخلاص من كل الأسى الذى يعانيه .

قال عنها : « إنها الجنية التى تستطيع أن تفعل كل شىء من أجلى » . . وقال لها أيضاً : « إنك أنت الممثلة الوحيدة التى ينطبق عليها التعريف المثالى الكامل للمرأة » . .وأحبته بيير بكل ذكائها وحرارتها . . وعلقت صورته فى إطار ذهبى بحجرتها فى هوليود . . .

ووقفت أم بيير فى وجه هذا الحب ، لأن جيمس لم يعجبها ، وخضعت بيير الصغيرة لأمها وتزوجت من المغنى « فيك داون » .

وحضر جيمس دين حفلة زواجها . . وخرج وهو يقول : « إن المرأة كائن يتركك . . إما بالموت أو بالخيانة » . . لقد تركته أمه بالموت وتركته حبيبته بالخيانة .

وفى الوقت الذى كان عشرات الآلاف يشاهدون حفلة العرض الأول لفيلم « شرقى عدن » وكان شباك التذاكر يسجل أن دخل الفيلم هو ١٥ مليون دولار كان بطل الفيلم الحزين الضائع

جيمس دين قد ترك نيويورك إلى حيث يصلى عند قبر أمه .

إن أمريكا كلها بكل ما فيها ومن فيها لم تستطع أن تعوضه عن حنان أمه . وعند ما بلغه بعد ذلك نبأ مصرع ممثل شاب فى حادث طائرة قال : « ليس الأمر بيدنا سأكون أنا كذلك ، عش شاباً ومت شاباً . وكن كفناً جميلا » . .

وبعدها بثلاثة أيام مات فى حادث سيارة كان يسوقها بسرعة ١٥٠ كيلو فى الساعة . . وكان سنه حينذاك ، أى فى سنة ١٩٥٦ ، لا يزيد عن ٢٥ عاماً !

كان جيمس دين يجد هوايته الكبيرة فى قيادة السيارات وكان يقتنى عدداً كبيراً منها ، ويغيرها بكثرة ، وقد كان حبه للسيارة نوعاً من البحث عن السرعة والعنف والتغيير . وليس هذا هو مرض جيمس دين وحده .

فالأمريكى عموماً هو الإنسان الوحيد فى العصر الحديث المصاب بما يمكن أن نسميه « عقدة السيارة » .

يقول إيليا اهرنبرج عن الأمريكى والسيارة :

« إن السيارة عنده ليست أداة نقل ، إنها هواه الأول والكبير . . إنه يلاطفها ويطلق عليها اسماً محبباً ويخدمها ويغدق عليها ويغدو عبداً لها . . وكثيراً ما يتناول الأمريكان الطعام فى السيارات ، وهناك سينمات معدة لأصحاب السيارات الذين يرون الفيلم دون مغادرة السيارة . . إن السيارة هى رمز هذا العالم الآلى . . ولذلك فإنها هى « الكائن » الأول الذى يهتم به الأمريكان ويمنحونه الرعاية الكاملة . . حتى محطات البنزين . .

إنها معدة كما لو كانت عشاً للغرام ينتظر فيه الإنسان حبيبه أو يلتقى به . . فغالباً ما يكون فيها مطاعم ومراقص ومخازن ، وفى وسعك أن ترقص بانتظار تصليح سيارتك ، بل إن فيها مكتبات تبيع الروايات البوليسية » . .

« وبعد فترة قصيرة يعدم الأمريكى سيارته فى مكان معروف اسمه " مقبرة السيارات " . . وتلتهم مقبرة السيارات كل يوم مئات السيارات التى يمكن أن تعمل فى أوربا عامين أو ثلاثة » .

والأمريكان أكثر الناس اهتماماً بسباق السيارات وقيادة السيارة عندهم فن وليست عملا من الأعمال . . ولا شك أن موقف الأمريكى فى الحضارة المعاصرة شبيه بموقف الهندى فى حضارته القديمة . . إن الهندى كان يتخلص من أزمته فى هذا الكون بتعريض نفسه للخطر ، كان يمتنع عن الأكل لمدة طويلة ، أو يعيش مع الثعابين ، أو يقف شهراً كاملا على قدم واحدة .. إنه كان يتفنن فى الوصول إلى الوسائل التى تزيد من شعوره بالخطر . . وهى وسائل كلها تنبع من فهم خاص للتصوف . . والأمريكى يعرض نفسه للخطر عن طريق السيارة حتى يشعر بطعم حاد للحياة الآلية . . ويستريح الأمريكى عندما يصل إلى حافة الخطر وينجو ثم يعود من جديد إلى المخاطرة .

إنها أزمة البحث عن طعم فى حياة بلا طعم . . لأنها حياة جاهزة أعدتها الآلة إعداداً كاملا .

وقد اختار جيمس دين « السيارة » ليتخلص عن طريقها من القلق . . فخلصته من الحياة . . وأصبح رمزاً عنيفاً للحزن

والضياع والاحتجاج على عالم يهتم بالآلة أكثر مما يهتم بالإنسان ..
عالم يصبح الكائن الإنسانى فيه قزماً بالقياس إلى ناطحات السحاب والمدن الواسعة المزدحمة .

ولو كان مجتمع جيمس دين يهتم بالمعانى الإنسانية . . لوجد الفنان الشاب مايؤمن به ويحل عن طريقه مأساته النفسية .. مأساة اليتم بلا أم ولا أب ولا صديق ولا حبيب .

إن النجاح فقط قد يقتنع به المنتج أو أى نوع آخر من التجار . . ولكن الفنان يبحث أولا عن حل لمشكلته النفسية ، لعذابه وقلقه ، ولذلك لم يعبأ جيمس كثيراً بنجاحه . . لقد ظل كما كان ضائعاً حائراً يرى فى حياته ذلك الشعار الذى ردده قبله أمريكى حزين آخر « لا شىء حقيقى وناجح سوى الفشل » .

إن جيمس دين ليس الحزين الوحيد فى أمريكا . . فهناك آخرون يعانون نفس الحزن العميق . . إنهم فنانون نابغون مثله . . ولكن « جلدهم سميك » . . إنهم يحتملون ويقاومون . . ويحاولون أن يقدموا للأمريكى معانى إنسانية جديدة لعله يؤمن بها وينتبه إليها . . فلا تأخذه دوامة الآلة بعيداً عن كل ما هو إنسانى .

هناك الأديب المعروف فوكنر الذى كان يعمل فى صباه ساعى بريد ، وعانى الحرمان والإهمال وقسوة الحياة الأمريكية .. وهو يكتب عن الزنوج ، ويصور ما يعانونه من عذاب ، وما يعانيه هو بسبب وجود هذه الظاهرة الخالية من الإنسانية . . إنه وهو الأبيض معذب تماماً مثل الزنوج . . لأنه يعيش فى العالم الذى يخلق كل هذا الأسى وهذه المرارة .

وهناك جون شتاينبك الذى كان يشتغل عاملا زراعياً . . فى الجنوب الأمريكى . . وتعتبر رواياته لوحات سكوب للطبيعة الأمريكية فهو يتحدث كثيراً عن المياه والحقول والسماء والليالى المقمرة والشمس الدافئة . . كأن يريد أن يقول للأمريكان : إن فى الدنيا شيئاً غير الآلة . . إن الحقول أجمل من ناطحات السحاب وأشعة الشمس الدافئة أعظم من تكييف الهواء . . والإنسان أرقى من السيارة .

وكذلك همنجواى ، إنه يعبد الطبيعة ويقدمها باستمرار فى أدبه كرد على المجتمع الآلى .

وقد عاش هؤلاء الذين يشعرون بالحزن الكبير . . لم ينتحروا ولم يهلكوا أنفسهم . . بل وقفوا يصارعون ويحاولون !

وهذا الحزن « ذو الجلد السميك » ، الذى يحتمل ويقاوم ، هو الأمل الوحيد فى خلاص أمريكا من المأزق الذى تعانيه والذى يؤدى إلى تدهور النفس البشرية ، إلى العبث والاهتمام بالتافه والرخيص.

بل إن هذا الحزن هو أمل الإنسانية كلها . . إنه الحزن الذى يدعو الإنسان إلى أن يعيش بقلبه . . وأن يكون عادلا حرًا .. وأن يعطى الحقوق لأصحابها حتى ولو كانوا من الزنوج !

ويوم أن يتحقق ذلك سوف تطمئن روح جيمس دين . . لأن العالم سيتحول إلى كلمة حب وديعة . . تلك الكلمة التى لم يجدها جيمس فى مجتمعه ففارق دنياه وهو شقى حزين .

* * *

ابتسم . . .

لقد أتيت بشريعة الضحك . . فيا أيها
الإنسان الأعلى . . تعلم كيف تضحك .

« نيتشه على لسان زرادشت »

كان المصريون القدماء يقضون نصف عمرهم فى الاستعداد للموت عن طريق بناء المعابد والمقابر . . وكانوا يستغلون أرقى فنونهم وعلومهم فى جعل معابدهم ومقابرهم جميلة . . وقادرة على البقاء الطويل . . ومقاومة الزمن . .

كانوا يخافون من الموت . . ذلك الكائن البشع . . ولم يجدوا أمامهم إلا أن يحاولوا استئناس الموت . . وجعله موتاً جميلا أنيقاً .

وأعظم ما بقى إلى اليوم من آثار المصريين القدماء : المعابد والقبور . . مما يدل على أن روح الحزن كانت عميقة فى نفوسهم إلى حد بعيد .

ولكن الغريب أن المصريين احتفظوا حتى فى تلك الأيام بروح النكتة . . والسخرية . . والمرح . . وقد وصفهم مؤرخ قديم بقوله : إنهم شعب لاذع القول . . روحه مرحة . .

فما هو سر هذا التناقض ؟

كيف يجتمع الفرح العميق ، والحزن العميق فى نفس واحدة ؟

من النظرة الأولى تبدو المسألة غريبة . . ولكن الحقيقة هى أن الابتسام والفرح هما أرقى تعبير عن الحزن العميق . . الأصيل .

إن الحزن هو وليد التجربة الكبيرة ، والخبرة بالناس والأشياء . . إنه دليل على المعرفة العميقة بالحياة . . والمعرفة — على رأى حكيم هندى — هى قلق عظيم .

فالإنسان كلما ازدادت خبرته وتجاربه تبين أن الدنيا تنطوى على مأساة . . كل شىء يفلت من اليد ويضيع . . الزهور تذبل . . والوجوه الجميلة تتغضن . . والعواطف الحلوة والأطفال والأصدقاء . . كل شىء له محطة يقف عندها . . ويتلاشى ويزول . .

نضارة الشباب تبتلعها خشونة الشيخوخة وجفافها . . الحب تقتله العادة والرغبة فى الامتلاك والتظاهر . . والمشاغل اليومية الصغيرة . . الصداقة تخنقها أنانية الفرد وحرصه على نفسه ومصالحه . . والشهرة أو الثروة تصبح ذات يوم عديمة النفع . . عندما تتخلع الأسنان ويرتجف البدن ويمشى الإنسان مستنداً على عصاه . . فلا تكون لديه القدرة على الاستمتاع بشىء . .

ثم هذه « المصادفة » التى تقف فى طريق البشر وتهددنا جميعاً . .

الشاب الوديع الجميل الذى كان يعتزم أن يذهب إلى فتاته بعد أيام . . ويأخذها من يدها فتطيعه فى خجل . . ثم يذهبان إلى الإسكندرية أو بورسعيد ليقضيان شهر السعادة.. شهر العسل..

هذا الشاب الذى نسجته أحلام رقيقة حلوة فامتلأ بالبراءة والفرح والنشوة ، كان يسير فى شارع سليمان . . فصدمته عربة . . وتحول إلى كتلة من العظام المعجونة بالدم . . ونقلوه إلى المستشفى ومات . . .

أليست هذه المصادفة شيئاً كئيباً ، يترصد الوجود البشرى .. ومن الممكن أن تقفز فى أى لحظة من لحظات السعادة لتفسد كل شىء ؟

أليس فى نهاية الطريق بئر عميق يبتلع كل شىء ويطويه ؛ اسمه : الموت ؟

وفجأة . . يقف الإنسان وحيداً . . ليجد أن كل شىء « باطل الأباطيل وقبض الريح » . .

حتى الأديان التى ظهرت لتساعد الناس على الحياة والتعاون . . تتضمن هذه المعانى . . فتعطى لحياة الإنسان صورة الشىء الزائل المنتهى . . وتقرع الأجراس ، ، وتؤذن على مئذنة ، لتنبه الإنسان إلى أنه مغرور ومشغول بشىء تافه صغير سوف ينتهى إلى العدم . . إلى أن يصبح تراباً رخيصاً لا قيمة له .

ولكن . . .

هل هذا هو كل شىء عن وضع الإنسان فى هذا العالم ؟

مما لا شك فيه أن هذه الأشياء كلها حقائق . . وأن الفهم العميق للحياة يؤدى إلى الشعور بضآلة الإنسان . . ويفتح أمام القلب البشرى منبعاً واسعاً للحزن . .

ولكن الإنسان الحزين فقط هو مشروع إنسان . . وليس إنساناً كاملا . .

أما الإنسان الناضج . . الذى يفهم بعمق . . فهو الذى يبتسم ويفرح . .

وإذا كان الحزن دليلا على المعرفة والفهم . . فالفرح والابتسام هما دليل على احتمال الحياة . .

عندما يبتسم الحزين ويفرح فهو يقول لنفسه وللحياة : أنا طرف المأساة . . ولكنى قررت أن أحتمل . . وأستمر فى السير . . وأنا أدرك أن الشوك يملأ الطريق . .

وهذه الحقيقة نفسها هى السبب الذى جعل المصريين القدماء يحملون فى قلوبهم أقوى الأحزان . . ثم يعبرون عن هذه النفس بالفرح والنكتة . . فقد اختاروا أن يكافحوا ضد الحزن . . وأن يجعلوا القبر هرماً ضخماً . . والمعبد مكاناً جميلا أنيقاً . . ويذهبوا إلى العالم الآخر فى « زفة » من الرقص والأغانى . . بل ويحملوا معهم الطعام والجواهر التى يتزينون بها كأنهم فى عرس لا فى مقبرة .

وقد كان الشاعر بيرون يقول : « ما ضحكت على مشهد بشرى زائل إلا وكان ضحكى بديلا أستعين به على البكاء » . .

فكلما اشتد به الحزن قاده إحساسه الجميل العميق إلى : الضحك ، والابتسام . . إنه لم يشأ أن يعبر عن حزنه تعبيراً سطحيًّا . . وليس هناك أكثر سطحية من الدموع ، والاستسلام للكآبة . . أما التعبير القوى عن الحزن فهو الفرح ، والبشاشة ، ومقاومة الأسى . . وتدليله وعزف الموسيقى له . . .

أما « أوسكار وايلد » فقد ناقش نفسه طويلا فى مسألة

الحزن والابتسام وتوصل أخيراً إلى أن الطريقة الوحيدة للقضاء على متاعب الحياة وتغيير هذه المتاعب . . هى الابتسام . .

ويقول الفنان الجميل العذب وايلد :

« إنى لأذكر كيف أن دانتى قد جعل فى الدرك الأسفل من النار الذين عاشوا عامدين فى جو من الحزن ، وإنى لأذكر تلك الفقرة التى جاءت فى الكوميديا الإلهية . . وكيف جعل دانتى أولئك العابسين فى الربيع الجميل الضاحك ، يتمرغون فى الأوحال والمستنقعات . .

« . . ولقد كان فى نيتى أن أعيش على أن تفارقنى الابتسامة فراقاً لا لقاء بعده . . وعلى أن يلازمنى طابع الحزن ملازمة دائمة فلا يكون بيننا انفصال ، وعلى أن أجعل كل بيت أدخله بيت أحزان ، ومأوى هموم ، وعلى أن أجعل أصحابى يمشون معى وهم فى حزن يحيل الشعر الأسود إلى شعر أبيض . . وذلك لكى أعلمهم أن الكآبة سر الحياة . .

« ولكنى اليوم غيرى بالأمس ، فقد رأيت غير لائق بى . . بل رأيت من الجحود فى حق أصحابى أن ألقاهم عابساً واجماً ، فيصبحون مضطرين إلى أن يلقونى من باب المشاركة وهم أكثر وجوماً وحزناً .

« واجب علىّ أن أتعلم منذ اليوم كيف أبدو سعيداً قرير العين مسرورا » . .

هذا هو ما توصل إليه أوسكار وايلد بعد تجربة واسعة فى الحياة . . جرب الشر والرذيلة والفوضى ، كما جرب الخير والحب

والسعادة . . وذاق حلاوة الحياة الأرستقراطية المترفة . . بكل ما فيها من نعيم ومتعة وتفاهة وانحطاط . . ثم جرته أخلاق الأرستقراطية المنحلة إلى الشذوذ الصاخب الذى أدى به إلى المحاكمة ثم السجن . . وقضى سنتين فى عذاب السجن وحيداً لا يهتم به أحد . . وقد تركته أحلام الدنيا الصاخبة لتأملاته وأحزانه .

وتبين أخيراً أن الحياة فى أعماقها هى تجربة محزنة . . ولكن لابد من احتمالها . .

كان يظن أن الحزن والكآبة هما سر الحياة . .

وتبين له أن الابتسام واحتمال الحزن هما سر الحياة . . بل إن المبتسمين هم الحزانى الحقيقيون فى هذا العالم . . هم الفاهمون المترفعون الذين يملكون السر المختفى بين الزحام والضجيج ، أما الكآبة والدموع . . فأصحابها عابرون على السطح .

والمسألة ليست هى أن نفهم وندرك فقط . . بل لابد أيضاً أن نتحرك ونتصرف . . وقد اكتشف أحد علماء الاجتماع أن معظم الأبطال يتميزون بالبشاشة والروح المرحة . . بالرغم من أن البطولة فى حقيقتها احتمال للمتاعب والمصاعب . . والتعرض لألوان عسيرة من الأحزان . .

فكل شىء فى نظر البطل كما يقول المفكر الأمريكى أمرسون :

« ينبغى أن يكون مرحاً كشدو الكنارى . . حتى تشييد المدن ، أو إزالة الكنائس والأمم العتيقة التى وقفت فى سبيل الدنيا آلاف السنين » . .

والبطل ليس هو الإنسان العادى . . ولكنه مثل أعلى لنا جميعاً . . وعلينا أن نفهم تصرفاته النفسية . . فهذه التصرفات هى التى تعطيه وتعطينا معه القوة والحيوية والقدرة على العمل . .

إن البطل يختار التفاؤل والمرح حتى وهو غارق فى لجة الأحزان . . وابتسامته قوة تساعد على اقتحام المصاعب . . وتنقذ روحه من التمزق الذى قد يؤدى به إلى التردد وفقدان الهدف وراء ستار غائم من الدموع . .

إنه يعيش وهو يبتسم ويتألم وهو يبتسم . . ويموت محترقاً أو مشنوقاً أو مضروباً بالرصاص . . وهو يبتسم . .

وليس بطل التاريخ وحده هو الذى يعرف قيمة التفاؤل والسرور فى معركة الحياة . . فالبطل المجهول الذى يقوم بالأعمال الصعبة يعرف أيضاً قيمة الغناء والرقص وهو يقوم بعمله .

ونحن نعرف المراكبية . . هؤلاء البحارة الشعبيون الذين يشدون سفنهم على صفحة النيل من أسوان إلى الإسكندرية ورشيد . . إنهم يغنون دائماً وهم يصارعون النيل والملل والريح والطريق الطويل . . لا ينطلق الحزن من داخلهم . . بل يظل حبيساً مختفياً . . فالحزن يغرق السفن ويطيل الطريق ويكتم أنفاس الرياح .

* * *

ولا أعرف فى أدبائنا أكثر حزناً وانطواء على النفس من توفيق الحكيم ، فقلبه ملىء بالأسئلة والشكوك . . وأعماله المسرحية والروائية يبللها حزن وعذاب نفسى عميق ، فهو دائماً يتساءل . .

عن سر الحياة . . وسر المرأة وسر القلب البشرى . . وسر الزمن . وهذه الأسئلة الحائرة الحزينة لا تجد عنده أى جواب ، ولكن توفيق الحكيم استطاع أن يسيطر على إحساسه بالحزن والمأساة فاستخدم الفكاهة فى كتاباته حتى يخفف من هذا الشعور الكئيب ، ويعبر عنه بطريقة راقية . . وفى روايته الرائعة « عودة الروح » ، يظهر عنصر الفكاهة دائماً كلما اشتدت حدة المأساة وتأزمت أحداث الرواية . . كان توفيق الحكيم يقول بذلك : إن الحياة تصنع المأساة . . ولكن الفرح والابتسام هما التعبير عن فهم المأساة والصمود أمامها . . هما الشىء الذى نخلقه نحن لنرش الماء على النار . . ونبنى أسواراً حول العاصفة التى فى داخلنا حتى لا ندع لها أن تدمرنا . . وتقضى علينا . .

وهى قد تدمرنا حينما تدفعنا إلى الانحلال . . أو تدفعنا إلى الإحساس بأن مواقف الحياة متساوية . . وأن العمل والجهد لا قيمة لهما . . طالما أن النهاية واحدة ومعروفة . .

وقد روت زوجة الأديب العالمى تشيكوف : أنه أضحكها بعمق قبل موته بساعات وهو مريض وملقى على السرير . . ويعلم بإحساسه وبمعرفته بالطب ، أنه يوشك أن يموت . .

ورغم ذلك فقد فكر فى إضحاك زوجته عندما روى لها أنه يحلم بكتابة قصة فكاهية . . تدور حول جماعة من السياح الأمريكان والإنجليز فى أحد المصايف . . « كيف اجتمعوا جميعاً قادمين من رحلاتهم القصيرة أو نزهاتهم ، وهم يأملون فى الفوز بعشاء طيب دسم بعد المجهود الجثمانى الذى بذلوه طوال

يومهم . . ولكنهم يكتشفون فجأة أن الطاهية هربت قبل أن تعد طعام العشاء » . . وكان يريد بهذه القصة أن يقدم « ضربة موجهة إلى بطون هؤلاء الأشخاص المدللين » .

وضحكت الزوجة من أعماقها . .

وبعد ساعات أسلم الفنان الضاحك الحزين روحه . .

كان آخر ما تركه للدنيا التى ظلمته كثيراً ، وعذبته أفظع العذاب . . هو ابتسامة حلوة جميلة . . ورغبة فى أن يضحك الناس من قلوبهم . . رغم المأساة . . رغم الحزن والمرض والموت .

إن روح المرح المنبعثة من الحزن العميق لا تتوفر دائماً إلا فى أشرف الناس وأكثرهم نبلا وصفاء . . واجتهاداً فى تجميل الحياة . .

إن الابتسامة هى الاكتشاف الذى توصلت إليه هذه النفوس العميقة . . التى شربت أكثر كئوس الحزن مرارة . . وعرفت أن أعظم ما فى الحياة هو احتمال الحياة . .

إن الابتسام هو سر الحياة . . هو الترفع على أذاها والتكبر على مشاكلها . . وهو الجهد المتواضع النظيف لوضع الزهور على المقابر . . واعتصار المحبة من أشواك العواطف الصغيرة . . وهو الاستغناء الجميل . . والاكتفاء بسعادة الرضا الداخلى وتدريب النفس على الاحتمال . .

إن حبيبك الذى هجرك . . وصديقك الذى تخلى عنك . . وزميلك الذى لا يبالى بمشاعرك ، والمرض الذى قد

تهاجمك به الطبيعة . . كل هؤلاء يخافون ابتسامتك . . ويزدهرون وينتعشون على قطرات من دموعك . .

فابتسم . . .

* * *

المنتحرون

كان المجتمع القديم فى بلادنا قبل سنة ١٩٥٢ ضعيفاً قاسياً مليئاً بالآلام المريرة التى تجعل الطريق فى عيون الناس مسدوداً وتعكس على حياتهم ونفوسهم أسوأ الآثار. وهذه ثلاثة نماذج من مجتمع زمان.. مجتمع الأزمة والانتحار.

فى صيف عام ١٩٤٠ شاهد الناس على شاطئ الإسكندرية رجلا رقيق الجسم، يسير وفى يده كمية من الشيكولاتة يأكل منها، وكلما قابله طفل أعطاه واحدة.. كانت على شفتيه ابتسامة إذا رآها أحد ورأى تصرفاته أحس أنه نصف مجنون، ولكن إذا تأمل الإنسان هذه الابتسامة التى تملأ الوجه الرقيق الشاحب لوجد وراءها شعوراً عميقاً بالعذاب والضياع.

انتهت الشيكولاتة التى كان يحملها وفوجئ الناس بالرجل الذى كان يوزع الابتسامات والشيكولاتة منذ قليل يلقى بنفسه فى البحر فتبتلعه الأمواج، ويحاول الناس إنقاذه، فلا يستطيعون إلا إنقاذ جسده الميت..

وسأل الناس عن هذا الذى انتحر بتلك الطريقة الغريبة الشاذة، وعرفوا أنه الكاتب العالم الشاب إسماعيل أدهم.

لقد انتحر بطريقة غريبة، وقبل أن يموت كان قد عاش حياة أكثر غرابة وشذوذاً.. لقد انتحر فى سن صغيرة، لا تتجاوز الخامسة والثلاثين بعد مغامرات غريبة فى الفكر والحياة..

حاول إسماعيل أدهم فى حياته أن يقنع الناس أنه ليس من مصر ، وإنما هو مستشرق تركى تعلم فى روسيا ونال منها شهادة الدكتوراه فى العلوم . . وصدقت الصحف هذه القصة ، وكانت تنشر له أبحاثه على هذا الأساس .

وقد حدثنى عدد من الأصدقاء الذين عاشوا فى الإسكندرية وعرفوا إسماعيل أدهم أن القصة الحقيقية لهذا الشاب أنه ابن لأسرة فقيرة فى الإسكندرية ، تعلم تعليماً محدوداً ، وكان يمتاز بالذكاء الحاد . . فانصرف إلى الدراسة والقراءة ، واختار الفلسفة والرياضيات وتقدم فى دراسته حتى وصل إلى مستوى ملحوظ فى فهم هذه المسائل الصعبة ، وكان يبحث لنفسه عن طريق فى الحياة ، طريق يعمل منه ويكسب ، ولكن الطريق كان مسدوداً أمامه .

كان المجتمع فى ذلك الحين يواجه أزمة عنيفة ، أزمة يصعب على الفرد الممتاز معها أن يجد لنفسه طريقاً فى الحياة ، خاصة إذا كان هذا الفرد غير مسلح بأى شىء . . فهو ليس من أسرة ثرية تساعده وتحميه حتى يصل إلى ما يريد ، وهو لا يحمل شهادة علمية تسمح له بالعمل فى داخل المجتمع . . لقد كان معتمداً على جهده الشخصى وحسب . . وهذا الجهد لا يستطيع أن يحل له مشكلة من المشاكل .

كما أن المجتمع فى ذلك الوقت لم يكن يميل إلى الدراسة العلمية . . كان الإنجليز يسيطرون على الاتجاهات الرئيسية فيه . . وكان أكثر الأشياء التى يكرهونها هى نمو الوعى العلمى عندنا .

إن نمو العلم يترتب عليه نمو الصناعة . . وكان الإنجليز

يصممون على تعطيل الحركة الصناعية فى المجتمع . . ألسنا بلداً زراعياً لا يصلح للصناعة ؟

وكان عندنا عدد بسيط جداً من العلماء والمهندسين والأطباء. بل كان معظم الذين يقومون بالأعمال العلمية كالهندسة وغيرها من الموظفين الإنجليز .

حتى الذين درسوا وتعلموا فى القاهرة وأوربا كانوا يعانون أزمة عنيفة ، فليس فى البلد أى معامل ، وليس هناك إقبال من الدولة على العلم . . كان مصطفى مشرفة عالماً عربياً عظيما ، وكان صديقاً وتلميذاً لأينشتين ، درس نظريته وكان واحداً من أبرز علماء العالم الذين فهموها فهماً مبكراً ، ومع ذلك فقد عاش هذا الرجل فى مصر قبل الثورة حياة تعيسة أليمة حتى أصيب فى آخر حياته بأمراض عصبية خطيرة .

كان مشرفة يمشى فى الشارع ويضرب الحصى بقدميه كالأطفال . . لأن كل ثقافته العلمية لا قيمة لها فى مجتمع يكره العلم والعلماء ولا يعطيهم أية فرصة ليستفيدوا من علمهم أو ليفيدوا الناس . . وكان باستطاعة هؤلاء العلماء أن يفعلوا شيئاً . ولكنهم بدلا من ذلك أصيبوا بأمراض مختلفة من بينها الجنون .

كان إسماعيل أدهم يعيش فى هذا المجتمع المضطرب المصاب بأزمة « كراهية العلم » تحت ضغط المستعمر والحكام الرجعيين . ولم يكن أدهم يملك غير ذكائه كسلاح ليواجه به المجتمع . . وكان الحل فى نظره هو : أن يكذب . .

أن يكذب على المجتمع ويتظاهر أمام الناس ، فأطلق ذقنه ، وقال إنه مستشرق نال الدكتوراه من روسيا . . وهو فى حقيقة الأمر إسكندرانى فقير لا يعرف روسيا وليس له بها أية علاقة من أى نوع . . ومن أين للناس أن يعرفوا الحقيقة ؟ ومصر لم تكن على علاقة دبلوماسية مع روسيا حتى عام ١٩٤٥ ، أى بعد انتحار أدهم بخمس سنوات .

كتب أدهم كثيراً فى الرياضيات والطبيعة وكان يعيش على قروش تأتى له من هنا أو هناك حياة تعيسة قاسية .

ولم يكن الكذب كافياً فلجأ إلى التحدى وألف كتاباً بعنوان : « لماذا أنا ملحد » . ويعتبر هذا الكتاب من أخطر الكتب وأجرئها فى الثقافة العربية الحديثة . . وكان إسماعيل أدهم يحاول أن يفسر إلحاده على أساس علوم الطبيعة والرياضيات ، وقد نشره له أحد الناشرين بالإسكندرية .

قبل هذا الكتاب كان أدهم يلقى إهمال الناس . . فأصبح مهملا وملعوناً فى وقت واحد . .

لقد ثار عليه المجتمع ووقف ضده .

ولكنه استمر يكتب ويعاند ، ونشر مقالات كثيرة فى مجلة « الرسالة » التى كانت تصدر فى القاهرة ، وفى مجلة « الحديث » التى كانت تصدر فى حلب .

ثم ألف كتاباً هامًّا عن توفيق الحكيم ولم يتم هذا الكتاب ، فقد انتحر قبل أن ينهى فصوله الأخيرة . . وقام الدكتور إبراهيم ناجى بإتمام الكتاب ، وطبعته مجلة « الحديث » فى حلب ،

والواقع أن هذا الكتاب يعتبر من أفضل الدراسات النقدية التى ظهرت عن توفيق الحكيم فى الأدب العربى حتى اليوم ، بالرغم من أنها دراسة غير معروفة على نطاق واسع .

لقد ظل البؤس المادى والمعنوى يسيطر على حياته حتى انتهى به الأمر إلى الانتحار .

لقد أغرقته الديون وطاردته لقمة العيش ، وعجز عن الحصول على مأوى يحميه . . فاختار هذه النهاية .

أما دراساته العلمية فلم تجمع إلى اليوم فى كتاب رغم أنها دراسات ممتازة عميقة . . وكثير من الناس لا يعرفون حقيقة هذا الرجل حتى الآن ، ويظنون بالفعل أنه كان مستشرقاً ، بل كان أصحاب الصحف والمجلات ينشرون مقالاته على هذا الأساس.

والحقيقة التى يؤكدها الذين عرفوه عن قرب فى الإسكندرية وتؤكدها أيضاً عدم معرفته الدقيقة باللغات الأوربية كما كان يظهر من الاصطلاحات الكثيرة التى كان يوردها فى مقالاته . . هذه الحقيقة تؤكد أنه أحد أبناء الإسكندرية ، ومن الجائز أن يكون من أصل تركى بعيد جداً ، وكل القصص التى كتبت عن حياته تبدو أقرب إلى الخرافات منها إلى الحقيقة ، مما يجعل منها قصصاً مشكوكاً فيها إلى أبعد حد ، فلا يوجد أى دليل يثبتها غير روايته هو .

* * *

وفى سنة ١٩٤٠ ، وبعد هذه الحادثة بقليل أطلق شاب وسيم لم يتجاوز الثلاثين من عمره الرصاص على نفسه فى حديقة

بيته الجميل الأنيق بالإسكندرية أيضاً .

وكان هذا الشاب أيضاً كاتباً شاعراً بدأ نجمه يلمع شيئاً فشيئاً . . ولم يكن أمامه عقبات . . بل كان الطريق مفتوحاً أمامه ليتفوق وليزداد نجمه بريقاً . . فما الذى دفعه إلى هذه النهاية الأليمة ؟

كان فخرى أبو السعود – وهذا هو اسمه – طالباً لامعاً يحرص على عزلته ، قليل الكلام ، كثير القراءة . . كان منذ صباه متميزاً بصورة واضحة . . وفى أحد الأعوام وهو طالب فى معهد المعلمين قرر زملاؤه أن يقوموا بالإضراب عن الامتحانات احتجاجاً على الأساتذة الإنجليز . . وفوجئ الطلبة بفخرى أبو السعود يدخل قاعة الامتحانات ليكون الطالب الوحيد الذى يؤدى امتحانه . . وكانت النتيجة أن أفسد على زملائه كل شيء ، ولما سأله أحد أصدقائه عن سر خروجه على إجماع الطلبة وتعريض نفسه لاتهامات كثيرة فى وطنيته وأخلاقه . . قال :

« إننى وطنى ووسيلتى فى محاربة الإنجليز هى أن أتعلم . . إن العلم هو أقوى سلاح لهزيمتهم . . ولا يهمنى ذلك السخط السطحى الذى تمتلئ به نفوس الطلاب ضدى ! »

ونجح بعد ذلك وتفوق ، ثم نجح فى مسابقة لبعثة إلى إنجلترا وكان الأول ، وسافر إلى لندن ليدرس الأدب الإنجليزى سنة ١٩٣٢ ، وعاد بعد ذلك بسنتين ومعه زوجة إنجليزية . . فتاة جميلة رقيقة ، أحبها هناك وكانت زميلة له فى الدراسة . .

وعندما عاد عمل مدرساً ، وبدأت الصحف الأدبية تنشر له شعره ودراساته الأدبية العميقة التى تكشف عن ثقافة قوية ، ثم نشر بعد ذلك ترجمة لرواية كبيرة تعتبر من روائع الأدب العالمى هى : رواية « تسى » لتوماس هاردى . .

وكانت حياته الخاصة فى الإسكندرية مثالا للهدوء والسعادة ، كان عصفوراً أنيقاً وجد العش الهادئ الجميل ، فاستراح ، وأخذ يفكر فى الإنتاج والإبداع فى ظل حبه ومدنيته الوادعة ، وبيته الحلو . . ثم على صوت طفل صغير جميل . . فقد أصبح أباً .

وأصبح طفله بالنسبة له شيئاً أساسيًّا يعطى لحياته معنى جديداً .

وقامت الحرب سنة ١٩٣٩ ، وكانت زوجته قد سافرت قبل ذلك بقليل لتزور أهلها ثم تعود إلى زوجها الذى أحبته ، وإلى المدينة التى سعدت بها واستقرت فيها . . وأخذت معها ولدها الذى أصبح صبيًّا صغيراً . . وعاش فخرى أبو السعود وحيداً ينتظر عودة الزوجة . . كان الأمل والحب يضيئان حياته . . ولكن الحرب قامت . . فلم تستطع زوجته العودة . . ثم وصل إليه خبر قاس مرير . . فقد جمعت الحكومة الإنجليزية عدداً كبيراً من الأطفال الإنجليز فى سفينة وأرادت أن تبعث بهم إلى كندا حتى يستقر الأمر ، وتنتهى الحرب ، وكان من نصيب هذه السفينة أن تغرق فى طريقها إلى كندا ويموت كل ما بها من الأطفال . . وكان من بينهم ابن فخرى أبو السعود !

ولم يحتمل الأديب والشاعر الحساس تلك الصدمة الأليمة المريرة . .

وكانت سنة ١٩٤٠ فى الواقع سنة اليأس الكبير ، فقد كانت انتصارات هتلر متتالية ، وكان الغرب منهاراً إلى أبعد الحدود ، وكانت النظرة إلى الواقع فى ذلك الحين تدعو إلى اليأس . . لم يكن هناك أمل فى هزيمة هتلر وانتصار الدول الغربية . . كان جواً قاتماً يفرض اليأس على الناس . .

وقد تصور فخرى أبو السعود أنه فقد الصلة بينه وبين زوجته إلى الأبد . . كما فقد الصلة بينه وبين ابنه الذى مات غريقاً فى كارثة السفينة فقرر أن ينهى حياته بيده .

* * *

وقبل هذه الحادثة بعشر سنوات تقريباً أغلق شاب على نفسه حجرة كان يسكن بها وأشعل فى نفسه النار . . ورأى الجيران الدخان يتصاعد من الحجرة . . فاندفعوا إليها ليجدوا جثة ما تزال تئن ، وهى تبعث بأنفاسها الأخيرة فأطفأوا النار . . ولكن الجسد كان قد فارق الحياة . .

كان هو الآخر شاعراً رقيقاً اسمه أحمد العاصى ، وكان ما يزال صغير السن لم يصل إلى الثلاثين من عمره بعد . . وكان أحمد شوقى أمير الشعراء فى ذلك الحين يعرفه ويحبه !

فما هى محنته . . ما هى مأساته التى دفعته إلى هذه النهاية ؟!

إنها محنة الإنسان الحساس الذى لا يعرف طريقاً واضحاً لمواجهة الأزمة فى مجتمع متخلف مظلم . . خاصة فى ذلك الحين

الذى كان الشخص الممتاز فيه شذوذاً غير مقبول على الإطلاق .

لقد اختلف الشاعر مع والده التاجر الذى كان يعيش فى أحد الأقاليم . . كان أبوه يريد منه أن يكون تاجراً مثله وأن يترك طريق الفن ، هذا الطريق الخيالى الذى لا قيمة له فى نظر تاجر لا يعرف إلا معنى الكسب والربح . وحاول أن يضغط على ابنه ويكلفه ما لا تطيق نفسه الحساسة الرقيقة . . وبالطبع لم يستجب الابن لهذا الضغط ، وفشلت علاقته بوالده الذى قاطعه واعتبره ابناً ملعوناً . .

وكان لهذه التجربة أثرها الأسود الكئيب فى نفس الشاعر الشاب . . وقد فاجأته هذه التجربة فى وقت كان يعانى فيه تجربة حب فاشل . .

وكيف يمكن لتجربة حب أن تنجح فى مجتمع ١٩٣٠ وما قبلها ؟

لقد كانت المرأة فى ذلك الحين أكثر من سجينة ، ولذلك فقد كان أدب تلك الفترة أدب الحرمان والحزن والدموع . .

وسافر الشاعر الحساس إلى لبنان . . وحاول أن ينسى محنته مع أبيه . . ومحنته مع فتاته . . وعاد بعد فترة وقد ألف رواية طويلة ، ثم نشر بعد ذلك ديوانه الوحيد وأسماه « ديوان العاصى ».

على أن محنته كان لها جانب آخر ، فلقد كان تلميذاً لطه حسين فى كلية الآداب ، وكان يحاول أن يناقشه ولكن خيل إليه أنه لا يلقى من أستاذه الترحيب الكافى ، ففقد ثقته فى ذلك الأستاذ الذى كان حينذاك علماً لامعاً من أعلام العصر ..

وتصور الشاعر الحساس أن طه حسين يضطهده ، وامتلأت نفسه بالأسى والحيرة . . ولم يجد طريقاً يخرج منه ويقضى على تلك الأزمة العاصفة فى نفسه . . حتى اختار الانتحار ، بتلك الطريقة المؤسفة المريرة .

* * *

إن هؤلاء الثلاثة لا يمثلون أنفسهم وحسب ، بل هم يمثلون الجيل الذى ظهر فى حياتنا منذ انتهاء الحرب الأولى إلى نهاية الحرب الثانية . . لقد كان جيلا حزيناً شديد القلق ، ولم يكن يعرف طريقاً من طرق الخلاص أو النجاة . . كانوا يظنون أن حياتنا أصبحت طريقاً مسدوداً يملؤه الحزن والفشل والعذاب . . وقد تكون أسماؤهم غير معروفة للكثيرين ، ولكن حياتهم فى الواقع كانت غنية وخصبة على قصرها . . وكانت دالة على نوع المجتمع الذى يعيشون فيه . .

وبعدهم جاء جيل آخر كان يعانى نفس الحزن والقلق ، ولكنه استطاع أن يجد طريقاً للخلاص . . لقد وجدوا هم طريق الانتحار ، أما الجيل الجديد الذى ظهر بعد الحرب العالمية الثانية فقد وجد طريق : التمرد والثورة . . .

* * *

زوجة تولستوى

احذرى أن تتزوجى عبقريًّا . .

بهذه الكلمات نصحت كاتبة أمريكية كل بنات جنسها . فالعبقرى رجل يعيش بالمقلوب . . وطريقته فى التفكير تختلف تماماً عن طريقة الآخرين . إنه لن يحتمل ثرثرة المرأة أو ضجيج الأطفال ، وهو غالباً ما يبنى حياته على أساس الوحدة والعزلة ، إنه يريد أن يعيش مع أفكاره ونفسه أكثر من الحياة فى المجتمع أو مع الناس .

بلزاك ، أكبر قصاص فرنسى فى القرن الماضى كان يعيش فى بيت ليس فيه أثاث على الإطلاق سوى بلزاك نفسه . . ومع ذلك فقد كان يتصور أنه يعيش فى أكبر قصور فرنسا . لقد أمسك بقلمه وكتب على جدران البيت : هنا لوحة لميكلانجلو وهنا لوحة لدافنشى . . وبهذه الطريقة الوهمية ملأ البيت بالأثاث الفاخر . . وإذا نام على الأرض بعد ذلك فقد كان يتصور أنه نائم على سرير من ريش النعام . .

برناردشو عندما تزوج بعد الأربعين اشترط على زوجته ألا يكون بينهما علاقة جنسية . وعاشت معه الزوجة ثلاثين سنة فى « زواج روحى » .

هافلوك أليس العالم النفسى المشهور ، اتفق مع زوجته على أن يعيش كل منهما فى بيت منفصل وألا يلتقيا إلا شهرين

خلال السنة . . واستطاع الزوج العبقرى أن يحتمل هذه الحياة . أما الزوجة فلم تستطع فانهارت أعصابها وانتهى بها الأمر إلى المستشفى ثم ماتت .

ولكن أكبر مأساة عصرية من هذا النوع هى مأساة زوجة الأديب الروسى الكبير تولستوى .

لقد ماتت هذه الزوجة بعد أن هجرها كل الناس حتى أولادها . . وماتت مجنونة !

ولم ينته السخط عليها بعد موتها ، فلقد ظهرت عشرات الكتب والمقالات تهاجم الزوجة وتقول إنها كانت سبب التعاسة والعذاب فى حياة زوجها العظيم .

حتى أصغر بناتها أصدرت كتاباً تقول فيه : إن أمى هى سبب المأساة فى حياة أبى . .

ولقد تجدد اتهام زوجة تولستوى أخيراً عندما احتفل العالم بذكرى ميلاد الأديب الروسى فى ٢٨ أغسطس الماضى . وقدم العالم الزهور لذكرى تولستوى وكانت اللعنة نصيب صوفيا أندريفيا زوجته . .

عاشت صوفيا مع زوجها خمسين سنة وأنجبت له ثلاثة عشر ولداً وبنتاً .. وكان تولستوى يحبها حبًّا كبيراً . . فما هو سبب المأساة ؟

إن أكبر حادثة فى حياة تولستوى هى هربه الأخير . . لقد ضبط زوجته وهى تفتش مكتبه وأوراقه ، ولم تكن هذه هى المرة الأولى التى يضبطها وهى تفعل ذلك . لقد كررت هذا

التصرف مراراً بحثاً عن أسرار زوجها ومذكراته ووصاياه . . وعندما ضبطها تولستوى وهى تفعل ذلك لم يقل لها كلمة واحدة . وذات ليلة وبعد أن نامت كل الكائنات خرج من قصره وقد قرر الهروب إلى الأبد من زوجته ومن حياته القديمة .

ولم يحمل تولستوى معه سوى قلم وبضعة أوراق ، ولبس ملابس الفلاحين الخشنة المتواضعة ، ووضع على رأسه طاقية غطت معظم جبهته ، وحاول أن يخفى شخصيته تماماً تحت هذه الملابس بل وغير اسمه فأصبح . ت . نيقولاييف . . وكان يريد بذلك أن يبدأ وهو فى الثانية والثمانين « حياة جديدة ويفتش عن موت نقى صالح » .

ركب القطار وحاول أن يذهب بعيداً إلى آخر حدود بلاده . هناك حيث لا تطارده زوجته ، وحيث لا يطارده المجد والشهرة لكى يموت فى سلام ، بعيداً عن تلك الأشياء الزائفة فى الحياة .

ولكن الناس اكتشفوا أمره فى اللحظات الأخيرة . غير أنه كان قد اقترب من حدود الحياة ولم يعد بينه وبين الموت إلا مشوار قصير لا يزيد عن أيام .

نزل الفنان العظيم فى إحدى القرى الصغيرة حيث رقد على سرير حديدى قديم فى مكتب ناظر المحطة . . ورفض أن يرى أحداً ، ورفض على الخصوص أن يلتقى بزوجته التى كانت تقف أمام مكتب ناظر المحطة حيث قضى ليالى لم يستقبل فيها غير الطبيب .

إن أول خلاف نشأ بين صوفيا وزوجها كان حول الأرض .

لقد كان تولستوى إقطاعياً كبيراً ورث عن أهله أراضى شاسعة ، ولكنه كان فناناً ومفكراً ، وكان قبل كل شيء إنساناً عميق الإنسانية .

وبعد أن قضى شباباً سعيداً ، وفى لحظة باهرة من حياته وقف يسأل : لماذا أملك الأرض ، ويجوع الفلاحون ؟

لماذا آكل أنا فى أطباق من الذهب ، ولا يجدون ما يأكلون ؟

لماذا يعملون هم فى الأرض فتتشقق أيديهم ويشرب التراب من عرقهم وأقضى حياتى فى كسل شنيع .

وفى الأخير تصبح الثمار لى . . كل الحصاد الذى لم أزرع منه بذرة واحدة يجيء كعبد أجير ؟

هل هو الفن الذى أكتبه سبب ذلك ؟

إن الفن شيء تافه ، إنه عبث وترف يفكر فيه الكسالى الذين لا يعرفون معنى الألم . .

وثار الإنسان العظيم فى قلب تولستوى على الإقطاعى وقرر أن يوزع الأرض على الفلاحين .

ووقفت صوفيا فى وجه زوجها . .

فالأرض التى وزعها على الفلاحين ، أعادتها بالقوة . . والفلاحون الذين كانوا قد أصبحوا مالكين حولتهم هى من جديد إلى أجراء .

واستسلم تولستوى لزوجته بعد صراع .

ولكنه كان استسلاماً ظاهرياً ، فقد كان لا يكف عن

تعذيب نفسه وإذلالها . . كان يذهب إلى العمل مع الفلاحين ، وكان يقضي أياماً فى صناعة حذائه الخاص بيديه ، وكان يهاجم القيصر أمام الجميع وهو يتمنى من وراء ذلك أن يسجنه القيصر أو ينفيه ، فيتحول إلى شهيد . . إلى رمز لأفكاره التى ينادى بها ولا يستطيع تحقيقها فى حياته الخاصة .

• • •

لقد تحول تولستوى إلى ما يشبه النبى عندما تحول من كتابة القصص والروايات إلى المناداة بدعوة سياسية واجتماعية شاملة : دعوة إلى الحب ودعوة إلى إلغاء نظام الامتلاك . . كان يقول : إن كل شىء يجب أن يتبدل . . وكان يقول ذلك فى عالم تسوده القيصرية والإقطاع وينتشر فيه الظلم بصورة وحشية .

وعندما تحول تولستوى إلى شبه نبى كثر أتباعه وأصدقاؤه ، وأصبح قصره كعبة كل أيامها مواسم حج دائمة . . مئات من الناس يجيئون ويذهبون . . شاب يستوضحه فى رأى ، كاتب يعرض عليه إنتاجه . رجل دين يحاول أن يقنعه بالعدول عن الطريق الذى يسير فيه . صحفى يعد حديثاً معه . يائس من الحياة يسأله : هل هناك أمل ؟

وكان على زوجة تولستوى أن تحتمل هذا كله .

كان عليها أن تحتمل عشرات « اللاجئين » إلى بيت تولستوى كأنهم من أهله ، وكان كثيرون منهم يخرجون بعد ذلك يهاجمونه ويقولون إنهم عرفوا سر هذا النبى الدجال .

ولقد سجل أحد الأصدقاء المخلصين لتولستوى صوراً كثيرة

لهؤلاء الذين كانوا يسيئون إلى تولستوى أبشع الإساءات . لقد كان كثير من هؤلاء الأتباع أدعياء زائفين . إنهم طائفة تحيط عادة بالرجل العظيم وتتغذى على حياته ثم تحاول أن تبنى وجودها بالهجوم عليه والتنكر له .

وكانت زوجة تولستوى تدرك ذلك وتحس بغريزتها مدى ما فى هؤلاء الناس من انحطاط . . ولذلك فقد كانت تكرههم وتنفر منهم وتحاول أن تبعدهم عن زوجها . . ولكن تولستوى كان يفكر بطريقة أخرى ، كان كالأنبياء لا يريد من الناس أى جزاء ، كل ما كان يفكر فيه هو أن يقول تعاليمه ويلقيها على الناس ، ولذلك فقد فتح صدره وأعطى بيته ووقته وكل ما يملكه لهؤلاء الناس بدون تمييز بين من يستحق ومن لا يستحق .

وهذه نقطة خلاف أخرى أساسية بين تولستوى وزوجته .

لقد كانت تكره معظم أصدقائه وأتباعه ، ويقول جوركى وقد كان من المؤمنين بتولستوى والمعجبين به ، إن تولستوى قد نجا بفضل زوجته من كثير من رفسات الحمير ولم يصل إليه بفضلها كثير من الطين .

وهكذا وقفت صوفيا فى وجه تولستوى ، رفضت أن يتحول هذا الرجل المسئول عن أسرة كبيرة ضخمة إلى رجل معدم لا يجد ما يأكله . . ورفضت أن تسمح له بأن يقدم حياته ليعيش عليها هذا العدد الضخم من المعجبين الزائفين الذين سرعان ما يتحولون إلى ذباب ساخط ينهش حياته وشرفه وسمعته .

وقد دفع هذا كله زوجة تولستوى إلى أن تتدخل فى حياته

تدخلا عنيفاً . . ومن هنا كانت المأساة . .

كانت مجرد امرأة ، أما هو فكان أكثر من إنسان .

كانت تعيش فى الحاضر . . أما هو فكان يعيش فى المستقبل.

كانت تعيش فى المجتمع أما هو فكان يعيش فى الإنسانية.

كانت تعيش من أجل حياتها وحياة أسرتها ، أما هو فكان يعيش من أجل مبادئ عالية . . من أجل الإنسان فى كل مكان .

وكانت تحاول أن تجره إلى عالمها وأفكارها . . كانت تحاول أن تضع العملاق الذى لا تتسع له الدنيا فى قمقم لترعاه وتحرسه . . وليكون لها وحدها دون سائر الناس .

ومن أجل ذلك كانت تحاول دائماً أن تعرف أسراره وتدخل إلى عالمه الخاص بقسوة لتعرف كل شىء عنه حتى لا يفلت من الحدود التى رسمتها له .

وانهزمت هذه الزوجة فى آخر الأمر؛ لقد قرر أن يترك لها كل شىء ويهرب .. إنه يريد أن يعيش ما بقى له من أيام وحيداً نقياً .. لا تلوثه أرض يمتلكها .. أو شعور بأنه سعيد على حساب فلاحين عبيد . . أو شهرة تفسد طهارة إحساسه البسيط بالحياة .

إنه يريد الحقيقة المطلقة . . الحب الخالص . . الكلمة النقية الوحيدة .

ومات تولستوى فى هربه الأخير ميتة متواضعة بسيطة . . لعلها كانت أجمل ما يتمناه . .

هل كانت زوجته سر مأساته ؟

أجل كانت جزءاً من هذه المأساة .. لأنها لم تفهمه تماماً .. ولكن تولستوى كان لابد أن يقع فى المأساة سواء كانت معه زوجته أم لا . . فقد كان قلقه فظيعاً . . بشكل لا يمكن أن يعطيه أى لون من ألوان السعادة ، فهو نوع من الألغام النفسية تدمر كل هدوء واستقرار فى حياته . .

كان « يصر على كتابة المسودة سبع مرات ، وعلى أن يكتب الكتاب كله من الأول كلما قرأه من جديد » .

وكان يكره عالمه الخاص والمجتمع الذى يعيش فيه ويريد تعديلا كاملا للوجود البشرى .

وهذا هو سر مأساته . .

ومن الضرورى أن يكون العالم أكثر إنصافاً وهو يتذكر زوجة تولستوى .. فيكفى هذه الإنسانة أنها استطاعت أن تتحمل لمدة خمسين سنة قلقاً لا ذنب لها فيه . . ولم تكن مستعدة له لا بتربيتها ولا بطبيعة شخصيتها ، كانت فتاة جميلة مترفة تأخذ الحياة بيسر وسهولة ولا تعرف أبداً معنى الألم . ولكنها لم تكن تعرف أيضاً أنها عندما تزوجت الإقطاعى الغنى تولستوى قد ربطت مصيرها بأكبر عاصفة من عواصف القلق والتمرد ظهرت خلال مائتى سنة تقريباً ، وقد استقرت هذه العاصفة فى قلب رجل واحد هو زوجها فدمرت إحساسه وإحساس من حوله بالسعادة .

لقد هجرها الناس بعد موت زوجها واعتبروها مسئولة عن

مأساته ، وعاشت أيامها الأخيرة وحيدة . . حزينة . . ثم أصابها الجنون الذى قادها إلى القبر .

إنها زوجة مظلومة ، وهى تستحق من العالم ألا يلعنها كلما تذكر زوجها العظيم بل أن يقدم إليها زهرتين من الفهم والإنصاف .

* * *

بالحضن

إن أردتني فابحث عني تحت نعل حذائك .

والت ويتمان

بعض الناس يعاملون الحياة ببرود وعدم مبالاة ، إنهم يعيشونها كما يؤدون واجباً ثقيلا على نفوسهم . . واجباً عرضته الظروف عليهم ، لا يحبونه ولكنهم لا يستطيعون الهروب منه . . وبعض الناس يجاملون الحياة. كما يجامل موظف صغير رئيساً قاسياً لا يرحم ، لعله بهذه المجاملة أن يخفف من قسوته وعنفه . . وبعض الناس يرفضون الحياة ويعاملونها باستهتار واستهانة ويودون دائماً أن يتخلصوا منها ، فهم لا يرون لها معنى ولا قيمة .

ولكن هناك نوعاً آخر من الناس يحب الحياة ، ويقبل عليها . . ويأخذها بالحضن . . إنها بالنسبة له معشوقة حبيبة . . كل ما فيها جميل عذب ، ليس فيها قوة وضعف ، أو جمال وقبح . . بل كل شيء فيها قوى وجميل لأنه « حي » . . فالحياة مجرد الحياة ، رائعة . . إنه يأكل بنهم ، ويحب بنهم ، ويغني دائماً كأنه أسطوانة خلقتها الطبيعة وسجلت عليها أصوات العصافير والبلابل . . وهو عندما يحزن إنما يحزن بنهم أيضاً . . إنه يغرق في الحزن حتى قمة رأسه .

وبالنسبة لهذا النوع الذي يأخذ الحياة بالحضن لا يوجد

مخطئون ولا عصاة ، لا يوجد إنسان غريب وإنسان غير غريب.. كل الناس كائنات جميلة ، وكل الحالات البشرية حالات مقبولة ، وكل إنسان قريب إلى القلب . . ذلك لأن رائحة الحياة تثير هذا النوع من الناس . . تدفع الدم إلى العروق ، وتملأ القلب بالعاطفة . . ويردد اللسان صلوات جميلة لتلك المعبودة المعشوقة . . الحياة .

من هذا النوع النادر من الناس فنان عاش فى أمريكا فى القرن الماضى ، وملأ الدنيا بضحكاته التى كانت تصدر من قلبه ، وخرج على كل التقاليد الزائفة وهاجمها بعنف دون أن يكف عن الضحك والمرح ، وكانت البيئات المحافظة التى أزعجها هذا الفنان العجيب تقول عنه : « إن هذا الرجل يجب أن يطرد من كل مجتمع مهذب . . إنه أحط من البهائم » . . وكانوا يقولون عنه أيضاً : « إن معرفته بالفن كمعرفة الخنزير بالعلوم الرياضية » .

ولكنه لم يعبأ بشىء ، بل استمر يحضن الحياة فى أى مظهر من مظاهرها ويعيش أيامه بشجاعة وبدون خوف وكان يصاحب « أحط » الناس فى نيويورك ويعيش فى وسطهم ، وكان له كثير من الأصدقاء يعملون « سائقى عربات كارو أو حمالين على أرصفة الميناء » أما الزنوج فكانت علاقتهم به قوية . وكانوا يحبونه ويتعلقون به ، فهو أحد البيض القلائل الذين يحترمونهم ويعاملونهم معاملة بشرية .

ذلك هو « والت ويتمان » الذى كان يقول عن نفسه :

« إن أردتنى فابحث عنى تحت نعل حذائك » .

فقد كان يمنح عواطفه لكل شيء فى الحياة ، حتى للتراب والعشب ، ولذلك فأنت تستطيع أن تجده فى التراب الذى تدوس عليه . أليس هذا التراب جزءاً من الوجود الجميل .. من الحياة الجميلة .

وليس هناك عند هذا الشاعر كائن غريب . . كل الناس قريبون من نفسه . . فى قصيدة له تحت عنوان : « إليك » . . يقول :

« أيها الغريب . . يا عابر السبيل ، إذا مررت بى . . وكنت تريد أن تتحدث معى . . فلماذا لا تفعل ؟

إنى أيضاً أريد أن أتحدث معك » .

وهكذا تذوب الثلوج بين الإنسان والإنسان ، ولا توجد حواجز ولا سدود ، فالقلب مفتوح للجميع يرحب بالجميع .

وفى قصيدة أخرى يهاجم الشاعر نفسه ونزعة الغرور والأنانية التى يمكن أن تعيش فى هذه النفس ، أو فى أى نفس أخرى .. والقصيدة عنوانها : « من أكون فى آخر الأمر ؟ »

« من أكون فى آخر الأمر سوى طفل .. أجد السعادة عندما أسمع صوت اسمى يتردد .

وإذا تكرر اسمى مراراً . . ومراراً . . فإنى أقف لأسمع . . سعيداً لا أحس بالسأم لحظة ولا أتعب .

« وأنت أيضاً تحس بنفس السعادة عندما تسمع اسمك . هل تظن أنه ليس هناك فى العالم سوى هذه المقاطع الصغيرة التى

يتكون منها اسمك » .

إنه هنا يريد أن يزيل هذا الحاجز الذى يضعه كثير من الناس أمامهم فلا يستطيعون رؤية العالم أو الاندماج فيه بقوة . . ذلك الحاجز الذى يتكون من كلمة واحدة هى « أنا » . . وهى كلمة ساحرة يسعد الإنسان عند سماعها ، وهناك ناس لا يودون أن يسمعوا سوى هذه الكلمة ، ولا أن يروا أى نوع من جمال الحياة إلا إذا كان مرتبطاً بها . . وبذلك يعيشون فى دائرة ضيقة، مغلقة ، ليس فيها نافذة على رحابة العالم، ومساحته الواسعة الشاسعة المليئة بألوان عديدة من الجمال والعذوبة .

ويتسع قلب هذا الفنان الإنسان فيشمل كثيراً من ألوان الحياة ، إنه يفتح ذراعيه بلا تردد ، ويندفع بوجهه الوسيم ومظهره البوهيمى إلى كل الذين يقيدهم الحزن ويعطى لحياتهم طعماً مريراً ، ويجعل ابتسامتهم ذابلة ، ونظراتهم « منكسرة » .. ويحمل الإنسان الفنان معه كلماته الجميلة وعاطفته الحارة المندفعة ليعيد إلى هؤلاء البائسين المسحوقين ، إحساسهم بالحياة وحماسهم لها .

فى قصيدة له بعنوان « إلى مومس مجهولة » :

« كونى هادئة . . كونى على غاية من الراحة معى .

أنا والت ويتمان . . من الأحرار . . وقوى مندفع مثل الطبيعة . . إن نور الشمس يطاردك . . ولكنى لن أفعل ذلك . ومياه الأنهار تحجب عنك ما فيها من لمعان وبريق . وأوراق الأغصان تخفى عنك حفيفها الجميل . . ولكن كلماتى لن

تخفى عنك البرق ولا الحفيف .

إنى أتقدم إليك بتحية حارة . ونظرة احترام لن تستطيعى نسيانها بمرور الأيام » .

وهكذا تمتد صلته العاطفية بالعالم كله ، حتى هؤلاء الذين طردتهم الظروف خارج دائرة المجتمع وجعلت منهم كائنات لا يقابلها إلا الرفض والاستنكار . . حتى من شعاع الشمس ، ومياه النهر ، وأوراق الأغصان .

يقول عن نفسه :

« أنا آتى مع الموسيقى قويـًا ، مع مزاميرى وطبولى .

أنا لا أعزف أناشيدى للظافرين فقط ، بل أعزف أيضاً للقتلى والمقهورين . إننا نخسر المعارك بنفس الروح التى نكسبها بها .

فألف مرحى للذين فشلوا .

للذين غرقت مراكبهم فى البحر .

وللذين غرقوا هم أنفسهم فى البحر» .

ثم يقول :

« أنا رفيق الشعب وصديقه . . كلهم خالدون مثلى .

إنهم لا يعرفون كم هم خالدون . . ولكن أنا أعرف .

فكل إنسان يحب نفسه وممتلكاته .

أما أنا . . فأحب هؤلاء الذين كانوا فتياناً ، والذين يعشقون النساء . . أحب الرجل الأبى الذى يشعر كم يؤلم المرء أن يهان . . أحب الحبيبة الحلوة . . والعانس . . أحب الأمهات . . وأمهات

الأمهات . . أحب الشفاه التى ابتسمت والعيون التى ذرفت الدمع . . أحب الأطفال والذين يلدون الأطفال . . »

وهكذا يتسع قلبه للكل ، للجميلة والعانس ، للبسمة والدمعة ، للفاشلين والظافرين . .

ويمتد إحساسه الشامل بالحياة إلى الزهور والأعشاب . . إن الإنسان عنده يتحول إلى تراب يدخل من جديد فى تركيب النباتات ، فالنبات يتغذى من التراب الذى يتكون فى جزء منه . . من جسد الإنسان .

فلماذا لا تكون الزهور والأعشاب التى نراها هى فى الأصل فتاة جميلة عذراء أو شاباً وسيماً شجاعاً ، أو طفلا طاهراً بريئاً .

يقول « ويتمان » عن العشب :

بحنان أتناولك أيها العشب ، فلعلك طلعت من صدور الفتيات الذين لو عرفتهم لأحببتهم .. لعلك من عجوز أو من طفل صغير انتزعوه من حضن أمه .

ماذا تظن أنه حدث للرجال والفتيان والشيوخ ؟ ماذا تظن أنه حدث للنساء والأطفال ؟ . . إنهم أحياء وبخير فى مكان ما . فأصغر نبات على هذه الأرض . . يبرهن على أن الإنسان لا يموت ولو كان هناك موت فإنه يقود إلى الحياة كل شىء يسير إلى الأمام . . ولا شىء يزول » . .

بهذا الإحساس الذى يرى الحياة فى كل شىء ويشمها فى كل شىء حتى فى التراب والعشب يواجه « ويتمان » الدنيا ويعبر عن نفسية تعشق الحياة وتقبل عليها بحرارة ، ويدعونا أيضاً

إلى الانفعال بنفس الحرارة والحماس .

* * *

إن أجمل ما نتعلمه من هذا الفنان الذى « يحتضن » الحياة ويقبل عليها « بنفس مفتوحة » هو أن نتقبل الحياة وأن نعيشها بشجاعة كما عاشها هذا الشاعر . . والشجاعة هنا أن نبحث دائماً عن المعنى الإيجابى فى التجارب التى نعيشها ، فالفشل الذى يواجهنا أحياناً ، والصدمات التى تتعرض لها نفوسنا يجب ألا تجعلنا نفقد القدرة على السير والرغبة فى الاستمرار . . إن « تقبل » الحياة يحتاج إلى نفسية متفتحة واسعة ، وهذه النفسية هى التى يمكن أن ترى فى الفشل خطوة إلى النجاح ، وفى الألم طريقاً إلى السعادة ، والذين لم يوهبوا هذه النفسية المتفتحة يستسلمون من أول تجربة ، فيتسرب إليهم الضيق بالحياة ، والإحساس بأنها لا تطاق ، أو تمتلئ نفوسهم بالحقد والمرارة . فلا يستطيعون أن يتعاطفوا مع أى شىء جميل فى هذا العالم . . إن شجاعة الحياة التى يدعونا إليها هذا الفنان تعتمد على التسامح واتساع الذهن والعاطفة ، إنها لا تقوم على المرارة والحقد واستصغار شأن أى كائن فى هذا الوجود . . مهما كان بسيطاً عادياً .

فنحن أحياناً نضيق بالناس العاديين ونقيس الفرد بمدى نجاحه فى الحياة ، ومدى تفوقه ، ولكن هذا الفنان يدعونا إلى الحب الشامل ، إلى احترام الحياة فى أبسط مظاهرها وأقلها أهمية والنظر إلى الإنسان بعاطفة تغفر كل شىء ، ولا تعرف اللوم والتأنيب أبداً ، لا بتلك العاطفة التى تنقد دائماً ، وتشعر

على الدوام بعداء للحياة وتسخط عليها .

إن هناك إنساناً بسيطاً قد لا يلفت نظرنا إليه شيء هام من الناحية الخارجية ولكننا لو حاولنا أن نفهمه وأن نعطيه قليلا من عواطفنا واهتمامنا لوجدنا وراءه شيئاً يستحق الحب والاحترام. ربما كان هذا الرجل « كناساً » ولكنه يحمل فى قلبه مصباحاً صغيراً هو حبه لأمه أو زوجته أو ابنته . . إنه يقوم بعمله وهو مدفوع دائماً إلى رعاية إنسان فى هذا العالم وحبه ، وقد يستمر كذلك ثلاثين سنة أو أربعين . . ولو نظرنا إلى هذه السنوات الطويلة من ناحية لوجدناها روتيناً وجموداً لا أهمية له ، ولو نظرنا إليها من ناحية أخرى لوجدناها حبًّا متواصلا ، وكفاحاً جميلا . . هو أقصى ما يستطيع هذا الرجل أن يفعله .

وقد كان تولستوى يعلن : أحياناً بعض الآراء التى تصدم الناس ، ولكنها جديرة بالتأمل والتفكير . . كان يقول عن أحد الأشخاص « لولا حبه للكلاب لكان أسوأ إنسان فى العالم » . . ففضيلته الوحيدة أنه يحب . . يحب أى شيء ولو كان كلباً . فالعاطفة هى التى رفعته وجعلته إنساناً يستحق الاحترام ، ونفس الفكرة يرددها غاندى عندما يقول عن نفسه : « إن مذهبى ليس ديناً مغلقاً . . ففيه مجال لأقل مخلوقات الله شأناً » .

إنها دعوة إلى حب الحياة ، والإقبال عليها ، والابتسام دائماً فى وجهها . . فهى جميلة حتى فى عذابها وعصيانها وهى جميلة حتى فى الناس البسطاء ، وحتى فى العصاة والخاطئين والذين فشلوا . .

تلك هى دعوة والت ويتمان : أحبوا الحياة . . احتضنوا الحياة !

وهى الدعوة التى من أجلها صرخ كاتب شهير فى عصر ويتمان وقال :

« يا له من فنان عظيم وإنسان عظيم » .

* * *

الطفل المدلل

هذا الكائن العجيب الذى يظهر بيننا كأنه حلم ، وقد أعطته الطبيعة جزءاً من سحرها وسرها . . فإذا به يكتب كلاما جميلا أو يصنع أنغاماً تثير فينا السعادة ، وتجعل إحساسنا بالحياة حلواً عميقاً . . أو ينسج من الألوان والخطوط لوحة لفتاة تبتسم . . فإذا الابتسامة المرسومة أكثر إشراقاً وجمالا من أى واقع نراه . .

هذا الكائن الذى نسميه الفنان . . هل له حق خاص فى أن يتمرد على كل القواعد والقوانين ، ويحصل على امتيازات ليست لغيره ، فيعيش حياته على هواه حتى لو كانت هذه الحياة غارقة فى الشذوذ والانحراف ؟

ما دام الفنان « كائناً ممتازاً » . . أفلا يجوز له أن يلهو كما يريد بحجة التجربة ، وأن يقطع أى ارتباط بينه وبين العالم بحجة الإخلاص للفن ؟

ألم يقل فنان من هذا النوع فى أحد مسرحيات شو : « إن الفنان يؤثر أن يترك زوجته جائعة وأبناءه حفاة وأمه تكد لتحصل على لقمتها وهى فى السبعين على أن يترك فنه كى يعمل عملا آخر » ؟

أليس من حق هذا الكائن أن يكون معجباً بنفسه ويطلب من الناس أن يعاملوه معاملة خاصة.. ويسمحوا له بالحياة كما يشاء !

إن حياة « أوسكار وايلد » تقدم لنا تجربة عميقة حية تدلنا على أن هذه الفكرة خاطئة ، وأن الامتياز الذى أعطته الطبيعة للفنان هو عبء عليه ومسئولية . . وليس فرصة يستغلها للبحث عن متعة « غير عادية » و « عبث غير عادى » .

فأوسكار وايلد فنان مشهور ، أحدث ضجة فى إنجلترا ، بل فى أوربا كلها فى أواخر القرن الماضى . .

لقد كان موهوباً ، وكانت الكلمات الجميلة تتساقط من شفتيه بنفس السهولة والكثرة التى يتساقط الندى بها على زهور الصباح . .

ويقول وايلد عن نفسه بحق : « لقد وهبنى الله كل شىء : فأنعم علىّ بالذكاء والشهرة والمقام الاجتماعى العالى . . وأنا الذى جعلت الفن فلسفة . . وجعلت الفلسفة فنًّا .. وما قلت قولا أو قمت بعمل إلا كان موضع عجب الناس ودهشتهم . . وكل شىء مسته يدى أحالته شيئاً جميلا » . .

وبهذا الإحساس اندفع « وايلد » يجرب كل شىء ، حتى وقع فى الوحل . . وأصيب بالشذوذ ، ومرت فترة من حياته كان شذوذه فيها أهم من فنه ، وأهم من أى معنى آخر من معانى الحياة . .

وهو نفسه يتحدث عن هذه التجربة العجيبة . . تجربة انحرافه وشذوذه فيقول : « اتخذت الشذوذ والتسكع والمغالاة فى التأنق خطة لى فى الحياة ، فأحطت نفسى بأصحاب العقول الصغيرة ، وأصحاب النفوس الصغيرة ، وأسرفت فى تبديد ذكائى ،

وفى تبذير شبابى الذى كنت أظنه لا يفنى أبد الدهر ، وكنت أجد فى هذا التبديد وهذا التبذير لذة عجيبة » .

لقد وقع هذا الفنان الموهوب فريسة لتلك الفكرة الخاطئة ، حرية الفنان وحقه فى أن يعيش أى نوع من الحياة الشاذة . . بحثاً عن التجربة . . عن المعنى الفنى . .

إنها الفكرة التى ترى أن الفنان هو طفل الحياة المدلل ، الذى يحق له ما لا يحق لأى إنسان آخر . . هذه الفكرة التى وصلت عند البعض إلى اعتبار الغرور وعدم التزام أية مسئولية نحو الحياة والناس صفات مقترنة بالموهبة والعبقرية . .

وهذا هو ما حدث لأوسكار وايلد فى فترة من حياته .

لقد ظن أنه جاء إلى العالم ليأخذ منه أقصى ما يستطيع بل جاء ليجعل العالم يعبده ويمنحه امتيازات واسعة . . أليس موهوباً عبقريًّا ؟ .. ثم قادته هذه الفكرة إلى الانحراف والشذوذ فى علاقات سيئة ، كان أشهرها علاقته بالشاب الوسيم اللورد « ألفرد دوجلاس » والتى قادته فى النهاية إلى السجن ليقضى فيه سنتين كاملتين . .

وفى السجن استطاع وايلد أن يعود إلى صفاء عبقريته وطهرها ، فحاكم نفسه محاكمة أقسى من محاكمة الناس له ، وأدان نفسه إدانة كاملة . . وهو فى الحقيقة قد أدان الفكرة الخاطئة التى تقول إن الفنان له الحرية المطلقة فى أن يفعل ما يشاء ، طالما أنه يتمتع بامتياز وعبقرية . .

فالفنان الموهوب على العكس إنما يقوم بمحاولة لفهم الحياة

فهماً عميقاً ، ثم اكتشاف الجمال المختبئ فيها . . لقد منحت الطبيعة للفنان عيوناً سحرية يستطيع أن يرى بها ما فى الحياة من جمال وعمق . . وهذه العيون السحرية هى مسئولية كبيرة يتحملها الفنان وليست امتيازاً يبرر الشذوذ والانحراف .

ودور الفنان فى الحياة ليس فقط أن يقدم للناس متعة فنية ، فالفنان الذى يقف عند هذا الحد لا يزيد فى الواقع كما يقول الكاتب الفرنسى ديهامل عن أى « عاهر جميلة » . . إنها أيضاً تقدم المتعة للناس . . بلا مقياس . بلا هدف عميق . . بلا معنى من المعانى الكبيرة التى يمكن أن تقف وراء الجمال أو تكمن فيه . .

ومعنى هذا الموقف الخاطئ أن الامتياز الذى تمنحه الطبيعة للفنان أو للمرأة الجميلة هو طريق إلى الفوضى والعبث . . طريق إلى تبديد الحياة ، والوصول بها إلى التمزق والفساد . .

ولكن الموهبة الحقيقية هى خصوبة فى الحياة . . هى مضاعفة للحياة . . فالفنان الموهوب هو الذى يعيش حياته بعمق ، يعيش اليوم الواحد بأكثر من قيمته العادية ، لأنه يكتشف ، ويبتكر ويضيف إلى الحياة . . والفنان فى الوقت نفسه يدعونا ويساعدنا على أن نعيش فى الدنيا العميقة الجميلة التى اكتشفها لنا . .

وعندما وقع أوسكار وايلد فى محنته . . وقاده الشذوذ والانحراف إلى السجن كتب يبرئ فنه من تهمة « المسئولية » عن هذه النتيجة :

« إنه واجب على أن أقول لنفسى إنى أنا الذى أوردتها موارد الهلاك ، وأن لا أحد فى الدنيا مهما يكن عظيماً أو حقيراً بقادر على أن يدفعك إلى موارد الهلاك إلا إذا ألقيت نفسك بيدك فى تلك المهالك . . إنى أصدر هذا الحكم القاسى على نفسى فى غير شفقة ولا رحمة » . .

أى أن الإنسان هنا هو المسئول . . وليس الفنان .

ثم يستمر فى قسوته على نفسه ليكشف سر محنته :

« لقد استحالت الشهرة عندى إلى مرض أو جنون ، وغاب عنى أن أى عمل مهما صغر مقداره ، يبنى الخلق أو يهدمه . . إن ما يفعله الإنسان بين جدران غرفة مغلقة سوف يفعله يوماً أمام الناس . . لقد فقدت السيطرة على نفسى . . بل جهلت نفسى فأتحت للذة أن تسيطر علىّ ، ثم انتهى الأمر بفضيحة لا حد لبشاعتها ، ولم يبق لى الآن إلا الذلة والضعة » .

ولم يحاول أوسكار وايلد أن يقول إن الفن يسمح بالانحراف والشذوذ ، وإن العبقرية من حقها أن تعيش فى الوحل والانحلال الدائم . فالمشكلة التى تعرض لها وايلد وقعت فى « غفلة » من الفنان الأصيل ، لقد نسى نفسه ، وجرفه تيار الفساد الشائع فى المجتمع الإنجليزى ، فاضطربت مقاييسه ، وزحفت التفاهة إلى عالمه حتى انتصرت عليه لفترة من الوقت . . وأوقعته فى « الكارثة » التى هدمت حياته بعد ذلك . .

فقد خرج من السجن بعد سنتين ، محطم النفس لا يحمل أملاً فى المستقبل ، وحاول أن ينسى الماضى ، ولكن الماضى

انتصر عليه فمات بعد سنوات قليلة . . وبعد أن أنهكه العذاب النفسي . . والخمر . .

ولكن وايلد استطاع أن يصل من خلال الكارثة إلى أعماق نفسه الصافية ، وذلك حين سمحت له إدارة السجن بالكتابة ، فأعد كتابه الذى أسماه « من الأعماق » . . وكان الكتاب شفافاً رائعاً .. يعترف فيه وايلد بتجاربه ، ويعرى مشاعره وأحاسيسه ، وكأنه لا يخشى من شىء ، ما دام يدرك أن جوهره العميق هو : طهر وخير . .

لقد انبثق شعاع من النور فى حياة وايلد كشف له كل شىء . . وانبثق هذا الشعاع من خلال العذاب الشديد الذى كان يعانيه . . ومن خلال الوحدة الكاملة التى كان يعيش فيها ، وقد تخلى عنه الناس جميعاً ، وأصبحت ضجة الإعجاب التى كانت تحف به فى كل مكان مجرد ذكريات يرويها الناس فى خجل وحياء . . ولم يعد وايلد يجد أنيساً غير الشعاع البسيط من النور .. شعاع الحقيقة العميقة التى تعيش فى داخله ..

لقد تعلم الآن وهو وحيد بعيد ، أن الفكر الصافى ، والألم العميق هما المنبع الحقيقى لمعرفة الحياة وفهمها . . ليس طريق الحياة هو طريق اللذة ، وليس طريق الفن هو طريق الشذوذ والانحلال ، « لن أعنى بعد الآن إلا بصحبة الفنانين ، والناس الذين تألموا ، فأولئك هم الذين يعرفون ما الجمال وما الحزن ؟ أما من عداهم فلا يعنينى من أمرهم شيئاً » . .

وعندما أصبح وايلد على وشك الخروج من السجن كانت

أمنيته « أن يكون عندى بأية حال ما يكفينى للعيش ثمانية عشر شهراً حتى إذا لم أستطع تأليف الكتب النافعة ، استطعت على الأقل أن أقرأ الكتب النافعة ، وماذا بعد هذا من لذة ومتعة » .

وخرج أوسكار وايلد من السجن بعد « أن شفى نفسه من مرارة الضغينة والحقد على العالم » . .

ولكن نفسه كانت قد أصابتها الشيخوخة . . ولم يجد فى مجتمعه الفاسد نفس النور الذى وجده فى قلبه عندما كان فى الزنزانة . . لقد كان مجتمع إنجلترا فى أواخر القرن الماضى مجتمعاً كئيباً يتكون من : اللوردات والسكارى المسحوقين . .

فأين يمضى الفنان بعد أن استخلص من ماضيه فى لحظات المحنة كل ما هو جميل وعميق ؟

لقد عاد للسكر وتهشمت حياته كما تتهشم الكأس الفارغة فى بار رخيص .

ولكن الحكمة الأساسية فى تجربة وايلد كانت قد برزت بشكل واضح عميق . . فالفنان ليس طفلا مدللا للمجتمع أو للطبيعة . . بل على العكس إنه أكثر الجميع مسئولية ، وأكثر الجميع ألماً . .

والفنان الحقيقى لا يمكن أن يتخذ الشذوذ والانحراف مذهباً فى حياته . . إن الفن فى هذه الحالة خداع ووهم . . والشخصية المريضة هى التى تستخدم الفن بهذه الطريقة . . ولا يكون ذلك عن عمق وعبقرية . . بل عن مرض وابتعاد عن منابع الفن الحقيقى . .

والذين اضطربوا فى حياتهم من الفنانين الأصلاء كانوا فى الحقيقة ثمار مجتمع سيئ يضغط عليهم . .

ولكن الفنان الصادق يقاوم هذا الضغط دائماً ، ويقف منه موقف الفارس من عدوه . . يجمع قواه المعنوية ، ويغامر فى وسط كل المخاطر ، لكى يقول فى نهاية الأمر كلمته للحياة . كلمة « الذى تعذب أكثر من الكل فعرف أكثر من الكل » .

* * *

دائماً فوق كل الكلمات الجميلة ترتفع عبارة جورج ديهامل : « إن الأخلاق هى روح العبقرية . . بل إن الأخلاق أندر من العبقرية . . والأخلاق هى أثمن موهبة » . .

وما هو معنى الأخلاق ؟ . . إنها احتضان العالم ، وحب الإنسان واحترامه ومحاولة فهمه . . إنها الإضافة إلى الوجود البشرى والعمل على تجديده وجعله دائماً مشرقاً بالمعانى النبيلة الكبيرة . .

والذى يحمل فى قلبه موهبة الفن الحقيقى ، يحمل فى الوقت نفسه موهبة الحب للحياة والاحترام الكامل للإنسان . . ومهما تعثر الفنان الحقيقى فى التجارب الصعبة القاسية فهو دائماً يتبع ذلك الضوء الذى يشع من داخله فى لحظات العذاب . . الضوء الذى لاح لأوسكار وايلد وهو فى السجن . . « عندى أن كل شىء يقوم على الصدق يجب أن يصبح ديناً » . .

والصدق هو جوهر الفن . . وجوهر الأخلاق . . بل هو جوهر الحياة أيضاً .

عد إلى الحياة

« انس كل شيء فى حياتك الحاضرة وعد إلينا . . حطم كأس الفودكا وعد فإنى أنتظرك . . كلنا ننتظرك » . .

بهذه الكلمات الحلوة المؤثرة خاطب الفنان الكبير « أنطون تشيكوف » أخاه « نيكولا » . . وكان « نيكولا » قد أخذ يشكو من الحياة والناس ، فالحياة تضع العقبات فى طريقه . . والناس دائمًا يسيئون فهمه ، ولذلك فهو تعيس شديد الضيق ، لا يجد عزاءه إلا فى كأس من الفودكا ، ثم الشكوى المريرة التى لا تنتهى .

وكان « نيكولا » شابًا موهوبًا ورسامًا وكاتب قصة ، ولكنه لم يكن يعرف طريقة المحافظة على موهبته واستثمارها ، وكانت حساسيته الشديدة تدفعه إلى التأثر العنيف بالحياة ، والاهتزاز وفقدان التوازن أمام مشاكلها المختلفة .

ولم يترك « تشيكوف » أخاه ، بل دعاه ، وحدد له طريق العودة من اليأس والانهيار . . قال له فى بساطة وعمق : إن كل لحظة من حياتك لها قدرها .

ولكن « نيكولا » لم يستطع أن يعود فقادته الخمر إلى اليأس ، وقاده اليأس إلى الدمار والموت بدون أن يقدم شيئًا هامًا جميلا للحياة . . وكان باستطاعته أن يفعل ذلك لو استمع لصوت

أخيه العظيم وهو يناديه . . ولو سار فى طريق العودة الذى حدده له .

ولكن طريق العودة الذى حدده « تشيكوف » لم يمت لأنه لم يكن خاصًا بنيكولا وحده . . فنيكولا هو نموذج شائع فى الحياة. .بل إن كل واحد منا يصبح نيكولا فى لحظة من اللحظات قد تكون قصيرة ، وقد تمتد وتتسع إلى أن تشمل الحياة كلها .

لقد كانت محنة نيكولا : أنه يبدد حياته . . يبدد كل حياته . . يبدد كل ما يملك من قوى معنوية . . حتى يصبح فى آخر الأمر مثل المقامر الذى أفلس بعد منتصف الليل وطرده نادى القمار ، وذهب كل الرواد إلى بيوتهم . . وبقى هو وحيداً طريداً بلا مأوى ولا أمل .

هذا هو الإفلاس المادى .

وهذا هو الإفلاس المعنوى أيضًا .

وتشيكوف يكشف السر لأخيه ، سر الإفلاس الروحى ، والغنى الروحى . . فقد كان تشيكوف نفسه غنى الروح بينما كان رأسماله أقل من رأسمال أخيه بكثير ، لقد كان فقيراً جداً ، وكان مريضًا ، وحيداً باستمرار . . ومع ذلك فقد استثمر فقره ومرضه ووحدته وعرف قدر كل لحظة فى حياته ، حتى استطاع أن يقدم للعالم فى فترة عمره القصير الذى لا يزيد عن أربعين سنة نسبة ضخمة من الحكمة العميقة ، والجمال الخصيب . . جمال الكلمات ، وجمال السلوك والفهم والشعور .

لقد استطاع أن يصنع من « الفقر فى كل شىء » غنى

فى كل شىء » .

وبذلك عالج تشيكوف أكبر مشكلة تسبب للإنسان التعاسة والارتباك وتؤدى به أحياناً إلى الدمار . . هذه المشكلة هى أن يشعر الإنسان أن حياته تافهة ، لا فائدة منها ولا جدوى . . وفى هذه الحالة يبدأ الإنسان فى الشكوى . . الشكوى من العمل ، من الناس والظروف . . ويتحول كل شىء بالنسبة له إلى مرارة لا يطيقها الإحساس .

وقد يندفع الإنسان إلى أكثر من الشكوى فيقوم بعملية تبديد واسعة لإمكانياته . . إنه يبدد وقته ومشاعره وصحته . . ويجد فى كأس الخمر لذة لا يجدها فى قراءة كتاب ، وفى التسكع والفرجة على الحياة والسخرية من الناس لذة لا يجدها فى العمل ومحاولة الفهم الصحيح للأشياء .

وهذا الموقف يؤدى إلى الإحساس بالتعاسة ، إنه انتحار يتم على مراحل . . على عشر سنوات أو عشرين سنة أو أكثر . . ولكنه فى النهاية هرب من الحياة وكراهية لها ، وبحث دائم عن الغياب عنها .

ماذا تكون نتيجة حياة من هذا النوع ؟ ماذا يكون حصاد زرع من هذا الطراز ؟ . . إن النتيجة الأخيرة هى عدم الشعور بجدوى الحياة ، وبأن الإنسان قد ترك فى هذه الدنيا أثراً مفيداً جميلا !

والسؤال عن نتيجة حياة الإنسان سؤال هام ومخيف ، وبعض الناس يهربون من السؤال تماماً ، وبعضهم يواجهونه

بفزع وارتباك ، وآخرون يواجهونه بقوة .

وهذا النوع الأخير هو وحده الذى يصل إلى نتيجة ، إلى ثمرة ترضيه وتقضى على شعوره بالتفاهة . . وقد تكون هذه الثمرة هى مجرد العمل ، مجرد المحاولة .

والحكمة الكبيرة التى دلنا عليها تشيكوف عندما قال لأخيه : كل لحظة من حياتك لها قدرها ، تتجاوب تماماً مع الطريق الذى اختاره عدد كبير من العظماء ومعلمى البشرية . . هؤلاء الذين فتحوا الطريق أمامنا ، وساروا حتى وصلوا إلى أقصى أطرافه . . وكان كفاحهم دعوة لنا لكى نسير فى نفس الطريق ولو بعض خطوات .

فالحياة الناجحة هى الحياة المنظمة ، الحياة التى تخضع لرقابة دقيقة من الإنسان على نفسه ، وليست الحياة التى تجرى هكذا مع التيار يدفعها إلى الأمام مرة ، وإلى الوراء مرة أخرى.. فالإنسان لن يحقق أى انتصار على مشاكل الحياة ، دون تخطيط ويقظة ، وعمل دائب من أجل تحقيق هذا التخطيط .

وقد سمى تولستوى هذه العملية تسمية جميلة . . سماها « بالحراسة على الحياة الخاصة » . . وكان تولستوى نفسه يقوم بهذه الحراسة الدقيقة على حياته ، فلا يسمح لأحد اللصوص أن يدخل إلى نفسه فيسرق منه وقتاً أو شعوراً جميلا ، أو فكرة عميقة . . وهو لا يسمح أيضاً لجانب من جوانب حياته أن يصدأ أو يتعفن ، بل هو « يكنس » نفسه ويغسلها ، وينظفها ويرتبها فى كل لحظة ، ثم يعمل على أن يملأها

« بالأثاث الغالى الثمين » أى بالأفكار العميقة النبيلة ، وبالمشاعر الإنسانية الصافية المفيدة وبالسلوك النقى الرفيع . . إنه يريد أن يجعل من حياته شيئاً مفيداً مجدياً ، ولن يكون ذلك أبداً بأن يترك نفسه للصدفة ، بل إنه يعرف جيداً كيف يواجه الصدفة ويحاربها ويعمل للتغلب عليها وضمها إلى صف أفكاره النبيلة .

ومنذ صباه الأول لم يكن يجامل نفسه أبداً أو يخدعها أو يكذب عليها كان على نفسه حارساً أميناً لا ينام . . يواجهها وينقدها دائماً ويضع خطوطاً حمراء عنيفة تحت أى تصرف أو فكرة أو شعور يتسم بالتبديد الخالى من المعنى . . التبديد بلا جدوى ولا مقابل .

ففى مذكراته وهو شاب صغير يسجل ما فعله فى أحد الأيام بهذه الصورة : « من الظهيرة حتى الساعة الثانية مع « بيجيتشيف » . . تحدثت بحرية كثيرة ، وبغرور عظيم ، وأنا أكذب على نفسى أيضاً . . من الثانية حتى الرابعة رياضة بدنية : قليل من العكوف والصبر . . من الرابعة حتى السادسة تناولت طعامى وابتعت بعض الأشياء عديمة النفع . فى البيت لم أكتب شيئاً : إنه الكسل . زرت بعض أصدقائى وتحدثت هناك : « إنه الجبن » .

ثم ينتهى تسجيله لليوم بهذه الجملة : « لقد تصرفت بصورة سيئة : جبن وغرور وطيش وضعف وكسل » .

وهكذا يضرب تولستوى نفسه بسوط لا يرحم ، ويراقب نفسه بدقة وقسوة وكأنه قد انقسم إلى شخصيتين إحداهما تعادى

الأخرى بشدة ، فتقول لها عيوبها بلا خوف ولا مجاملة . . وتكون هذه المواجهة القاسية هى بداية التغير نحو حياة أكثر جمالا وفائدة . . وإن لم تكن أكثر سهولة وراحة ، فعندما كان تولستوى يعرف بصدق وأمانة أن هذا التصرف جبن وهذا غرور أو كسل ؛ فهو فى الوقت نفسه يسجل سخطه على هذا النوع من التصرفات وكراهيته له ، وهو على الفور يبدأ فى التغير نحو الجميل العميق معاً .

وهذا هو الدرس الذى يعطيه لنا تولستوى ، كما أعطاه لنا من قبل تشيكوف . . احترام كل لحظة فى الحياة وإقامة الحراسة عليها ، وجعلها – فى بساطة وصدق – مليئة بشىء نافع مفيد والنظر إلى حياة الإنسان على أنها نسيج كامل كبير ، يجب أن نضع فيه كل يوم ولو « غرزة » واحدة مفيدة ، حتى إذا وصلنا إلى منتصف الطريق أو إلى نهايته استطعنا أن نقول إننا فعلنا شيئاً ، وإننا لم نعش مثل الجراد والصراصير . . كائنات بلا مغزى . كائنات بلا فائدة .

لقد كان تولستوى مثل زميله تشيكوف يخاف على حياته أن تصبح تافهة ، أو تصبح كريهة ، ولذلك فقد كان يقوم بحراسته الدقيقة على حياته بدون تهاون ، ويطرد المشاعر السيئة من نفسه تماماً كما يقص أظافره الطويلة ، ويرفض اللحظة السطحية التى بلا معنى ولا طعم . . إنه يزرع أرض حياته ببذور مختارة ، بالقمح والورد والعنب . . ولا يترك هذه الأرض لتنمو فيها الأعشاب البرية السامة ، وتأوى إليها الغربان والفئران

وتصبح كئيبة خالية من الفائدة والجمال .

وبهذه الطريقة استطاع تولستوى أن يعيش اثنين وثمانين سنة لا تتكرر . . خصبة كلها ، فعالة كلها ، عميقة فى كل لحظة من لحظاتها . وفى القلق والاضطراب كما فى الاستقرار والهدوء .

* * *

يقول مفكر أمريكى معاصر هو الأستاذ الجامعى تشارلز فرانكل « إن العصر الحديث يتميز بالتبديد الهائل للقوى البشرية » . . وهذه الفكرة تدعونا أكثر للتأمل فى حياتنا على ضوء ملاحظات تولستوى وتشيكوف ، فالإنسان فى عصرنا إذا لم يقم بالحراسة الدقيقة على حياته ، فإنه سيكشف بعد وقت أنه قضى عمره فى الأشياء الكثيرة العاجلة التى يمتلىء بها عصرنا . . سيكتشف أنه قضى حياته فى تبادل كلمات المجاملة مع عدد كبير من الناس لا تربطه بهم علاقة عميقة ، وفى ركوب « الأتوبيسات » والجلوس على المقهى ، وتدخين السجائر والذهاب إلى السينما أحياناً . . وقد تدفعه الحياة إلى أن يركز على هدف أرقى قليلا ولكنه يستغرق حياته كلها ويسرقها مثل الحصول على عربة وثلاجة وغير ذلك من الأشياء التى تجذب أنظار الإنسان العصرى . . وستجد الفتاة أنها قضت الجزء الأكبر من حياتها فى الذهاب إلى الحياطة ، والثرثرة مع الصديقات والوقوف فى المطبخ ، والفرجة على المحلات العامة وشراء بعض الأشياء .

إنها نتيجة مؤسفة أن يكون حصاد الرجل والمرأة فى الحياة مقصوراً على هذه الأشياء محصوراً فيها ، والذين يكتشفون ذلك ويشعرون بالأزمة ثم يندفعون إلى الهرب من وعيهم يقعون فى مشكلة أخطر وأعمق . . إنهم يبحثون عن طريق لتدمير أنفسهم كما فعل « نيكولا » شقيق تشيكوف . . فما جدوى الحياة بالنسبة لهم وما هو الأمل الذى يمكن أن يتعلقوا به ؟

كل هؤلاء ضحية لمرض واحد هو عدم « الحراسة الدقيقة » على الحياة . . تبديد الطاقة البشرية بطريقة آلية متكررة لا تتجدد ، النظر إلى الطلاء الخارجى للإنسان، وإهمال الداخل إهمالا مطلقاً : حتى يصبح القلب مليئاً بالغبار ، والعقل ساعة قديمة مكسورة متوقفة عن العمل ، والإحساس متخدراً مشلولا هامداً . . وبهذه الطريقة تموت النفس وتذبل الروح . . ونقضى حياة لا فرح فيها ولا بهجة . . ولا قيمة لها ولا معنى .

وقد نذهب إلى الخمر . . كما ذهب نيكولا إلى عقد صداقة قاتلة . . مع الفودكا .

وبذلك نبيع حياتنا ونفقدها نهائياً .

* * *

إن علينا أن نستمع إلى الموسيقى الجميلة الخفية التى تنساب من خلال الزمان ، ويأبى تألقها أن يتغير أو يضيع ، وتظل قوية ثابتة كأنها جزء من الطبيعة . . تلك الموسيقى التى تنبعث من صوت تشيكوف وهو ينادى أخاه الغارق فى المحنة .

« إنى فى انتظارك . . كلنا فى انتظارك . . إن كل لحظة

من حياتك لها قدرها » .

وعندئذ ترتفع الموسيقى الهادئة العذبة وتعزف بصوت تولستوى السيمفونى الحار العنيف . . قم بالحراسة الدقيقة على حياتك .

وبذلك لا تتسرب الحياة ولا تضيع ونستطيع أن نصنع من وجودنا شيئاً جميلا مقنعاً ولو على أضيق نطاق وتظل هذه الموسيقى العذبة القوية تقودنا إلى النبع الجميل للحياة ، فنشرب منه ونشعر بالصحة والبهجة ، مهما كانت متاعبنا ومشاكلنا . . ومهما كانت العقبات التى تواجه الإنسان وتحاربه !

وبهذا يكون حصاد الحياة خصباً ثميناً .

الباب الضيق

« دع ذلك الذى يتحسس طريقه فى الظلام
والضوء المرتجف يستمسك بهذه الوصية
ويحرص عليها أشد الحرص وهى : أن يعمل
الواجب القريب منه . . فإذا قام بذلك
أصبح الواجب الذى يتلوه واضحاً ظاهراً » .

جيته

فى الفترة المزدهرة من حياة الإنسان وهى فترة الشباب ، يبدو كل شىء فى الحياة ممكناً . . فى هذه المرحلة من العمر يحس الإنسان بتدفق طاقة الحياة فى عروقه ، ويحس أنه يكتشف الدنيا من جديد .. فبعد أن كانت الأشياء فى مرحلة الطفولة تبدو سهلة ساذجة لا معنى لها أحياناً . أصبح كل شىء الآن ساخناً حارًّا له معنى ودلالة .

وفى فترة الشباب الأول ، ونتيجة للدفعة القوية المفاجئة من دفعات الحياة يبدو الإنسان فى نظر نفسه قادراً على كل شىء . وبذلك تتكون أحلامه عريضة واسعة ، ومشروعاته كبيرة غير محدودة .

ثم تبدأ المفاجآت . .

تبدأ بعد خطوة أو خطوتين من شباب الإنسان . . إنه يصطدم بالحياة ويجد أن الأحلام العريضة لا مجال لها ، وأن

الأفكار المثالية النقية تحتاج إلى بعض التعديل أو إلى كثير من التعديل وأن المشروعات الكبيرة الرائعة تتضاءل وتفقد بريقها اللامع .

وأن الفتاة التى كان يحبها لم تكن بكل هذه الروعة التى كان يتصورها من قبل . . إنها ليست ملاكا . . وأحياناً تقول كلاماً سخيفاً كأنه شوك . . لم يعد فى كلامها عسل ولا سكر.. . وأحياناً تتصرف تصرفات سخيفة تخلو من الشاعرية والسحر .

أين إذن أحلام الحب المتوهج البهيج ؟

والصديق الذى كان يؤمن به ، ويضعه فى أعلى وأعمق مكان فى القلب . . إنه هو الآخر يتصرف أحياناً بأنانية ، وبدون مثالية بيضاء نقية .

أما العمل الكبير الذى كان يحلم به ، فقد تحول إلى شىء محدود بسيط . . إلى وظيفة فى مكتب ، إلى مدرس أو مهندس أو طبيب .

أين إذن تلك الأحلام الأولى القديمة ؟

. . لقد كان يظن أنه سيغير الدنيا ، ويقوم بأعمال عظيمة رائعة .

وتتوالى المفاجآت . وتتوالى الصدمات النفسية ، التى تجرف معها التفاؤل والحيوية ، وتخلق الحزن والإحساس بالكآبة والتعاسة . ولحظة « الصدمة » تمر تقريباً بحياة كل إنسان . . وهناك من يعتبرون هذه اللحظة هى نهاية الحياة ، فينتحرون انتحاراً فعلياً . . أو ينتحرون بطريقة أخرى لا تقل عن الأولى

خطراً . . إنهم يغيبون عن الحياة بالسكر ، أو بأى عادة أخرى جامدة تشغلهم عن التفكير فى الحياة مثل الجلوس على مقهى والاستغراق فى ألعاب تافهة متكررة مسلية .

وهناك من يعبرون لحظة « الصدمة » ويستمرون فى الحياة ، وشيئاً فشيئاً يكتشفون أن الحياة بعد « الصدمة » أعمق لأنها حقيقية ، وليست ملفوفة فى « سلوفان » اسمه الوهم أو الحلم . . كما كان الموقف فى شباب الإنسان الأول . ولكن الخروج من ظلام الصدمة يحتاج إلى « بوصلة » تحدد للإنسان اتجاهه ، وترسم له الطريق حتى لا يضيع .

وكل الأطباء الكبار للنفس البشرية يقولون إن البوصلة الوحيدة هى : العمل .

ولكن السؤال هو : ماذا نعمل ؟ . .

إن كلمة العمل بمعناها العام لا تكفى ولا تؤدى إلى نتيجة . . ذلك لأن « الصدمة » نفسها قد تؤدى بالإنسان إلى كراهية كل شىء ، والإحساس بأن كل شىء فى هذه الدنيا لا يستحق الاهتمام . . ويصل هذا الشعور أحياناً إلى حد احتقار النفس ، والإحساس بأن ذات الإنسان أيضاً هو جزء من هذا العبث الغريب الذى نسميه : الحياة .

فإذا كان الحب لا يجدى ، والصداقة لا تجدى ، والمعرفة لا قيمة لها . . فأى نوع من أنواع العمل يمكن أن يكون مجزياً ؟ .

ونعود إلى الأطباء الكبار للنفس البشرية ونقف مع طبيب

واحد من هؤلاء الأطباء هو أديب ألمانيا العظيم جيته .

إن هذا الطبيب العظيم للنفس البشرية يقول إن العمل وحده هو الذى يعطى لبقية الأشياء فى الدنيا معناها وطعمها الحلو . . فالعمل هو القوة السحرية التى تجعل الحياة ربيعاً دائماً ، كل شى فيها أمام الإحساس أخضر ، منتعش . . جميل فى الحقيقة لا فى الوهم .

إن العمل هو الذى ينعش الحب والصداقة ، ويجعل المعرفة زاداً ثميناً نحمله معنا فى رحلة الحياة ، فلا نجوع أرواحنا أبداً ولا نتعرض للضياع .

ثم يقف طبيب النفس البشرية ليقول لنا . . إن من الخطأ أن نرسم لأنفسنا خطة ضخمة لأعمال كبيرة ، وننتظر أن يتحقق ذلك بصورة مفاجئة . . فإذا لم يتحقق ما كنا نحلم به أصابتنا التعاسة وامتلأت نفوسنا بالكآبة والهم .

إن ذلك خطؤنا وليس خطأ الحياة . . والطريق الصحيح الذى يقودنا إلى نبع الحياة الحلو ، وسحرها الدانى هو أن يقول الإنسان لنفسه :

« إن الخطة المثلى هى أن أعمل الواجب القريب منى »

ثم يؤكد جيته هذا المعنى مرة ثانية فيقول :

« ما أثمن وما أكثر أهمية الواجب القريب منى » .

ومرة ثالثة يقول لنا طبيب النفس البشرية بصوته الذى صقلته التجربة ، والإشفاق على الإنسان فى محنة ضياعه وأساه :

« دع هذا الذى يتحسس طريقه فى الظلام والضوء المرتجف

ويدعو ويبتهل لإقبال الفجر يستمسك بهذه الوصية ويحرص عليها أشد الحرص ، وهى أن يعمل الواجب القريب منه ؛ فإذا قام بذلك أصبح الواجب الذى يتلوه واضحاً ظاهراً » .

فالعمل الصحيح الذى يحمل سر السعادة والتغلب على آلام الحياة هو :

عمل الواجب القريب من الإنسان . .

فالواجب القريب قد يكون حلقة ضيقة ، ولكن إتمام هذا الواجب يقود إلى دائرة أوسع ، ويكشف عن كثير من المعانى الجديدة الرحبة فى الحياة ، فالخطوة الأولى تقود إلى الخطوة الثانية ، وأكثر الناس أحلاماً بالأعمال الكبيرة ، هم أكثر الناس فهماً وإدراكاً لحقيقة هى : أن هذه الأعمال الكبيرة تبدأ دائماً بمراحل صغيرة متواضعة .

فالرجل الذى يشكو من أن زوجته لا تشاركه مشاعره وأفكاره . . هل حاول أن يقوم بتجربة بسيطة هى أن يساعدها على المعرفة والتطور حتى تصبح قريبة من نفسه وعقله ؟ . . لقد كان هذا الزوج يعتبر السعادة هى أن يعرف امرأة تشاركه فى كل شىء . . وها هو الآن تعيس جداً لأنه اكتشف الفرق بينه وبين زوجته . . ولكنه مع ذلك لم يحاول أن يقوم بالواجب القريب منه وهو مساعدة هذه الزوجة على أن تتقدم وتقترب منه . . إنه يفضل أن يئن ويشكو ، على أن يعمل شيئاً .

ويمكننا أن نلاحظ فى حياتنا أن عدداً من الشباب الفاشلين يتميزون بذكاء ومواهب واضحة . . ولكنهم مع ذلك فاشلون

يائسون . . والسر الحقيقى البسيط هو أنهم نسوا « الواجب القريب منهم » . . إنهم ينظرون إلى هذا الواجب نظرة ازدراء . . فأين هذا الواجب القريب البسيط من الأحلام الكبيرة والأمانى العريضة ؟ والنتيجة أن يفشلوا فى تحقيق أحلامهم الكبيرة لأنهم أهملوا « الواجب القريب منهم » . . إنهم لم يسيروا فى الطريق الصحيح الوحيد لتحقيق الأحلام الكبيرة . . بل أرادوا أن يصلوا إلى هذه الأحلام « بالبراشوت » . . لا بالسير خطوة ، فى تأن وتواضع .

* * *

وحكمة جيته التى يلخصها فى دعوته إلى « عمل الواجب القريب »منا . . هى نفسها حكمة المسيح : اجهدوا أن تدخلوا من الباب الضيق . .

فالعمل البسيط الرقيق المتواضع ، البعيد عن الأضواء ، البعيد عن الزحام والضجيج . . العمل الذى قد لا يكون مغرياً مثيراً . . هذا النوع من العمل هو الباب الضيق ، الباب الذى لا يحب الكثيرون أن يدخلوا منه إلى الحياة ، لأنهم يفضلون الأبواب الواسعة التى تؤدى بهم إلى أهدافهم . . هذه الأبواب الواسعة التى نسميها الثروة أو الشهرة أو غير ذلك من أبواب الحياة . والتفكير فى هذه الأبواب نفسها هو الذى يسمم حياتنا ، ويجعلنا نشعر بالفشل والعجز عن تحقيق أحلامنا ويؤدى إلى التمزق النفسى الدائم . . ولكن الباب الضيق هو العمل الصغير المتواضع الذى يؤدى إلى عمل أوسع منه ، وقد يكون الباب

الضيق خالياً من كل بريق إلا فى شىء واحد هو أنه يؤدى إلى الإحساس بمعنى الحياة ، والإمساك بالخيط السحرى الرفيع الذى يجعل القلب مليئاً بالأمل ، ويجعل العين تبصر فى الحياة أشياء قد لا تراها العيون العادية . . عيون الذين يدخلون من الأبواب الواسعة فيرون الأشياء نفسها من نفس الرؤى الدائمة .

إن الباب الضيق هو فى كلمات طريق السعادة الداخلية العميقة . . وهذا هو ما توصل إليه جيته ، وسائر العظماء الذين أعطونا مفتاح السر الذى يكشف به حقيقة الحياة . . لقد ظل جيته يعمل وهو فى قمة مجده وشهرته وثروته ، كما يعمل أى تلميذ صغير . . بنفس المثابرة والتواضع . . حتى وهو على فراش موته . . فقد طلب وهو فى آخر لحظات حياته ورقاً وقلماً ليعاود العمل . . ليستمر فى الكتابة . . فى عمله الذى أحبه واختاره وأخلص له منذ البداية . . وقبل أن يموت بلحظات عبر عن سعادته وفرحته بعودة الربيع إلى الأرض .

لقد ظل حياته التى استمرت أكثر من ثمانين عاماً . . يعمل ويلتمس السعادة والفرح وعذوبة الحياة فى العمق . . فى عمل الواجب القريب منه دائماً . . فى الدخول من الباب الضيق الذى لا يقبل عليه الكثيرون .

* * *

البئر

هى فتاة جميلة . . تعرف أنها تستطيع أن تجد « الرجل » فى أى وقت ،ولذلك فهى لا تجعل « عقدة » حياتها الأولى : انتظار الرجل ، والخوف من أن يفوتها القطار الخالد . . قطار الزواج .

وهى ليست فقيرة ولذلك فإنها لا تعانى معركة كل يوم . . لا يطاردها البحث القاسى عن اللقمة ولا زحمة المواصلات ، ولا المسكن الضيق الذى يؤدى إلى الإحساس بضيق الحياة .

ولكن وجهها الجميل العذب ، والفيلا التى تسكنها فى المعادى ، والعربة التى توصلها كل يوم إلى الجامعة ، وتفوقها الدائم فى الدراسة . . . كل هذا لم يصل بها إلى جواب .

وهى تسأل : ما معنى الحياة ؟ . . هل هى أن تتزوج مثل أى فتاة . وتواصل الحياة العادية الروتينية التى يعيشها معظم الناس ؟ . . إنها ليست مقتنعة بهذا المصير ولا راضية . . . فلا بد أن يكون فى الحياة ما هو أعمق ، وأعظم من هذا الروتين الدائم الذى يجعل حياة الناس نغمة واحدة لا تتكرر ولا تتبدل أبداً .

وابتدأ وجهها الجميل العذب يكتسى بالقلق والشرود والحزن . . . إنها تبحث عن الطريق ، وتلجأ إلى كل وسيلة ممكنة . . . بدأت تقرأ الشعر والقصة ، وتدرس العلوم وتسمع الموسيقى ، وتعيش طويلا مع الفلاسفة .

وما زالت تبحث عن طريقها فى الحياة ، بوسيلة أساسية هى المعرفة والثقافة . . وقررت ألا تستسلم أبداً حتى تصل إلى شىء .

والمعرفة بئر عميق حفرته الطبيعة منذ آلاف السنين . . . وقد استخدمت الطبيعة فى حفر هذا البئر كل غموضها وأسرارها ، ولذلك صار بئراً رهيباً ، لا يقترب منه إلاّ الذين يمتلكون الشجاعة وقوة الاحتمال .

وكل المصابيح التى وضعت فى هذا البئر لم تضئه إضاءة كاملة ، فما زال البئر رغم المصابيح الكثيرة التى فيه غامضاً تحيطه الأسرار وعلامات الاستفهام .

وكل الذين دخلوا بئر المعرفة عادوا إلينا يقولون : لا يمكن أن نصل إلى أعمق أعماقه !

الأنبياء الذين أنار الله قلوبهم على جبل ، أو فى حلم من الأحلام ، أو إشراقة من إشراقات الوحى قالوا : لا تجهدوا أنفسكم فى معرفة كل الأسرار فهذا طريق المعصية . . . أما إذا أردتم الطريق الصحيح ، فعليكم أن تؤمنوا بقلوبكم ومشاعركم .

وأينشتين بعد أن اكتشف النسبية وفتت الذرة قال : ما أكثر الأسرار التى ما زالت فى الكون . . . وعندما نقرأ كتابه المعروف « العالم كما أراه » نحس أننا مع أحد الدراويش المتصوفين لا مع أحد العلماء الذين فتحوا أسرار الكون بمفتاح العقل .

وعشرات الفلاسفة جعلوا شعارهم كلمة واحدة هى : لا أدرى .

والشعراء والأدباء يقدمون على مر التاريخ أحزاناً ومشاعر منداة بالخوف والإحساس بصعوبة الحياة وغموض العالم . . . أكثر مما يقدمون لنا حلولا أو طرقاً للخلاص .

وفى بئر المعرفة ضاع كثيرون . . . وتعذب كثيرون . . .

تولستوى الكونت الإقطاعى الغنى ، القوى الصحة كأنه حصان ، كان فى الخمسين من عمره سعيداً بزوجته الجميلة الحسناء ، وشهرته التى تملأ العالم ، وثروته الكبيرة التى لم تجعله يوماً يشعر بأى احتياج من أى نوع . . . فجأة أصيب بالحنين إلى بئر المعرفة المطلقة ، واستيقظ فى منتصف ليلة من الليالى يتلوى ويقول : إنى أريد أن أعرف سر الحياة وهدفها الحقيقى ؟ وجرى تولستوى إلى بئر المعرفة فغرق فيه ، وانتهت إلى الأبد قصة هدوئه وطمأنينته .

وقال عنه بعض الناس : إنه قديس . . وقال آخرون : إنه مجنون .

وقالت عنه زوجته : إنه ضحية حب لامرأة أخرى . .

وقال القيصر : هذا رجل خارج على طاعتى .

أما هو فقد أحس بحنين عجيب إلى اكتشاف الأشياء المجهولة فى هذه الحياة . . . ولم تكن الثروة تغنيه ولا زوجته الجميلة وأولاده يعطونه معنى للحياة ،ولم تقدم له الشهرة إلا مزيداً من العذاب .

إنه يريد شيئاً أبعد وأشمل . . . يريد شيئاً يفسر له هذه الأسئلة الستة بوضوح :

« لماذا أعيش ؟ ما سبب وجودى ووجود كل إنسان غيرى ؟ ما سبب الخلاف الذى يوجد داخلى بين الخير والشر ؟ كيف يجب أن أعيش ؟ ما الموت ؟ . . كيف يمكننى أن أصل إلى النجاة ؟ »

وقادته هذه الأسئلة الست الرئيسية إلى التفكير فى العدل والظلم ، وفى عذاب الناس وحرمانهم .

لقد وقع فى بئر المعرفة . . ثم أضاء بعض المصابيح مثل الدين والأخلاق والعدل الاجتماعى والحب . . . ولكنها كلها « فرقعت » فى وجهه . . ولم تضئ له الطريق !

وبقيت له على صفحات التاريخ قيمة «المحاولة العظيمة » .

كان شقياً . . . ولكنه كان فى الوقت نفسه يشعر بنوع خاص من الرضا عن حاله .

لقد خرج من عالم الاستقرار الوهمى الذى كان يعيش فيه ، وبدأ يحس بمشاكل الناس ويرى القبح الذى كان يملأ العالم ويشوهه ، ووقف ينادى بتغيير العالم ، وجعله مكاناً أرحب للعدل والحب والجمال .

لقد انتقل تولستوى بنفسه من مرحلة « السعادة » إلى مرحلة « العظمة » . . . ترك الحياة السعيدة الهادئة ، إلى حياة عظيمة ليس فيها هدوء .

وكل الثورات الإنسانية التى نشأت بعد ذلك فى أوربا أو فى الشرق تأثرت فى شكل من الأشكال بشخصية تولستوى العظيم ، لا بشخصية تولستوى السعيد .

وفى تاريخ الشرق قصة أخرى مشابهة ، خرج صاحبها من النعمة والهدوء ، إلى التعب والشقاء فى سبيل المعرفة والحقيقة . وكانت المعرفة والحقيقة فى نظره أيضاً هما العدل والحب .

ذلك هو بوذا ، نبى الهند القديم ، كان أبوه من أكبر الأمراء الأثرياء ، وكان بوذا الابن الوحيد لأبيه ، وكان أيضاً هو الوارث الوحيد لثروة أبيه الكبيرة .

وكلمة بوذا نفسها معناها « الذى يعرف » .

وعندما وصل بوذا إلى سن الشباب بدأ يتساءل عن المشاكل الكبرى فى المجتمع من ناحية أخرى ، فهو يرى الفقر الشديد فى بلده إلى جانب الغنى الشديد ، ثم رأى الموت والمرض والشيخوخة تفتك كلها بالحياة البشرية . . . وكان بإمكانه طبعاً أن يجعل من ثرائه وسعادته سوراً يفصله عن شقاء العالم ، كان من الممكن أن يجد سعادته الكاملة لو لم يسمح لهذه الأسئلة عن « الشقاء الإنسانى » أن تضنيه وتقتحم عالمه . . . ووقف أبوه الأمير الثرى يلاحظ عوامل القلق والحيرة والحزن التى تتسرب إلى شخصية ابنه فحاول أن يغريه بشتى ألوان الإغراء لكى يثنيه عن العالم الجديد الذى بدأ يدخله . . . عالم المعرفة الإنسانية العميقة . . . عالم التساؤل والشك .

ولكن بوذا ترك كل شىء . . . ترك ثروة أبيه . . . ترك زوجته الجميلة وابنه الطفل . . . وذهب ليغرق هو الآخر فى بئر المعرفة ، وعاش فى أحد الكهوف المظلمة الخشنة ، وأخذ يقرأ ويدرس . . . ثم خرج إلى الناس ليقول لهم حكمته ،

وفهمه الجديد للسعادة . . .

« سعيد كل من رأى الحق ، وسعيد كل من خلت نفسه من سوء النية » . . .

« يجب أن ننتصر على عوامل الفناء فى الحياة : الموت والفقر والمرض والشيخوخة » .

واعتبر بوذا حياة أبيه الأمير « باطلة زائفة حمقاء مثل قصة يرويها أبله » .

وجعل هدفه « أن يسعى لإراحة المتعبين وإسعاد المكروبين ، وإنزال السكينة على قلوب الذين ناءوا بأعباء الحياة ، وتشجيع المستضعفين حينما يشرفون على فقد ثقتهم بأنفسهم » .

وكان يلبس أخشن الملابس ، ويعيش فى أفقر الأماكن ويواجه أى ظلم يراه برأى صريح فيه ، ويهاجم بشدة الأسباب « الإنسانية » للتعاسة . . . وهى الأسباب التى يخلقها الإنسان ، وليست الأسباب التى تخلقها الطبيعة ، أو المصادفة .

فالذين يعاملون الإنسان كأنه عبد والذين يبحثون عن الثروة ولو بطريق السرقة والظلم ، والذين يتفرجون على الإنسان وهو يتعذب . . كأنهم يشاهدون شيئاً مسلياً طريفاً !

كل هؤلاء يخلقون التعاسة ويبذرون فى الدنيا بذور العذاب .

وهكذا . . . ظل بوذا يعمل ويشقى . . . يقول الحكمة والحق ، ويرفض الحياة الناعمة اليسيرة . . . ويدفعه إحساس عميق أن يعيش فى بئر المعرفة دائماً ، ولو كان فى هذا البئر ظلام مخيف . . .

وقد تعذب طيلة حياته ولكنه حمل الابتسامة إلى شفاه الكثيرين من التعساء ، والقوة إلى القلوب الضعيفة ، ورفع معنويات الذين أرهقتهم الدنيا وسحقتهم ظروف المجتمع .

* * *

هذان مثالان من التاريخ . . تحولت شعلة المعرفة عندهما إلى حريق كبير ، وخرج هذا الحريق إلى مسرح الحياة الواسعة ، فكان تأثيره كبيراً على حياة الناس . .

وبالنسبة لتولستوى وبوذا . . كان هذا الحريق مصدر عذاب شخصى ، ولم يستطيعا تجنب هذا العذاب أبداً . . ولم يستطيعا أن يرضيا بالسعادة الخاصة ، ولا بالقصور الكبيرة ، ولا بعدم الحاجة إلى الناس . .

بحثا وعرفا . . وكان الحنين يدفع بهما إلى أعماق بئر المعرفة بدون رحمة . . وكانا يغامران دائماً ضد الظلام ، ولا يعبآن بالتعب . .

ولم يكن كفاحهما بدون جدوى . . فتولستوى هو أكبر صرخة مهدت للثورات الاشتراكية المعاصرة . . وبوذا هو واحد من أسبق الشرقيين الذين فتحوا قصور الأغنياء وقال للفقراء ادخلوا . . إن من حقكم أن تعيشوا . . وتسعدوا مثل الآخرين . .

والذين يحملون فى نفوسهم « شرارة » المعرفة ، وحنيناً كبيراً إلى رفض الحياة الروتينية . . هم دائماً الذين يرسمون للحياة مستواها الجميل ، رغم ما يلاقونه من التعب . .

فالفتاة الجميلة العذبة التى نجذبها بئر المعرفة . . فدخلته

بكل ما فيها من رقة وشفافية وبراءة . . إنما تبحث عن مستوى جديد لحياة المرأة . .

تبحث عن معنى عميق للحب . . يسبق الزواج ويكون سبباً له . . وتبحث عن دور لها فى المجتمع أكثر من دور « ست البيت » . . تبحث عن أنواع أخرى من المتعة الراقية ، غير مجرد راحة البيت ، واستقرار الحياة ، وقد تكون هذه المتعة الجديدة هى : لحن أو فكرة ، أو قصيدة شعر أو صداقة عميقة أو عمل جميل تقوم به .

وسوف يزيدها شوقها إلى المعرفة حلاوة وعذوبة . . والوجه الجميل سوف يقترن بنفس جميلة تعرف ينابيع الصدق وتفهم الأشياء بعمق ونبل . .

إن المعرفة قلق وألم . . ولكنها أرقى طريق إلى تعميق الحياة وتنويعها ، وتوسيع أفق الإنسان وخلق صلة واسعة بينه وبين العالم ، وإعطاء كل لحظة فى الحياة طعماً . . ومهما كان هذا الطعم فهو أفضل من لحظة تمر بلا طعم !

والذين يدخلون بئر المعرفة قد ينجحون أو يفشلون . . ولكنهم دائماً يقومون باستغلال أعظم ما يملكه الإنسان : الفكر والعاطفة . والضائعون فى بئر المعرفة مثل المنتصرين . . كلهم « أبطال » يعملون لتجميل الحياة وجعلها عميقة وحلوة . . محتملة ومعقولة . .

* * *

الصخرة

كثيراً ما تحدثنا أنفسنا فى ملل : إننا نفعل الشىء نفسة كل يوم . . . نخرج من بيوتنا فى الصباح ، ونذهب إلى العمل ، ونعود إلى بيوتنا مرة أخرى لننفذ بقية البرنامج اليومى الخالد الذى لا يتغير ، وتمر بنا الأيام فنكتشف أن حياتنا نفسها ليست إلا تكراراً لحياة الآخرين ، هذه الحياة التى تدور فى دائرة تكاد تكون مغلقة هى : الميلاد والزواج والعمل والموت.. فكل شىء يعود دائماً إلى ما كان عليه : متكرر لا يتجدد ، روتينى لا مفاجأة فيه . .

وقد تصور اليونان القدماء حياة الإنسان فى إحدى الأساطير حياة رتيبة خالية من أى شىء جديد . وتقول هذه الأسطورة إن كبير الآلهة غضب على « سيزيف » وحكم عليه حكماً عجيباً . . حكم عليه أن يحمل صخرة من سفح جبل وينقلها إلى قمة الجبل على مائة مرحلة ، وعندما تبلغ الصخرة قمة الجبل تسقط من جديد إلى أسفل ليعود إلى نقلها مرة أخرى ، وتتكرر القصة كل يوم .

هذا هو العقاب الصارم الذى فرضته الآلهة على « سيزيف » أن يظل يكافح من أجل غاية هى الوصول بصخرته إلى القمة ، ثم لا يكاد يصل إلى غايته حتى تتدحرج الصخرة ، فيعود إلى الكفاح من جديد . وبذلك يصبح كفاحه أليماً مريراً ؛ أولا : لأنه

تافه بلا هدف وثانياً لأنه يتكرر ولا يتجدد . . .

وترمز هذه الأسطورة إلى أن حياة الإنسان بلا جدوى ولا معنى ، فسيزيف يرمز للكائن البشرى ، والصخرة ترمز للعمل وللحياة اليومية التى نعيشها ونكررها دائماً . .

وقد اتفق الفلاسفة على أن يسموا هذه المشكلة بمشكلة العبث ، مشكلة الإحساس بأن الحياة لا جدوى منها ولا معنى ، فكل شىء قد يخدعنا ، ويدعونا إليه ، فإذا جربناه وجدناه سراباً لا ماء فيه ، ووهماً لا ظل له فى الواقع . . إن الصداقة والحب أو العمل قد تغرينا ، ولكن التجربة تثبت أنها أشياء خاوية لا تقضى على ما فى الحياة من تكرار ، بل على العكس تدخل تحت سلطان التكرار ، وتفقد أول بريق لها بعد قليل من التجربة . .

هذا هو ما توحى به الأسطورة اليونانية : الإحساس بالعبث . .

وقد عبر عن هذا الإحساس كثيرون من كبار الفنانين والمفكرين ، . . هناك كاتب أوربى هو « مارسيل بروست » شعر بأن الحياة الإنسانية وهم وعبث ، وظل الإحساس بالعبث يطارده ويلح عليه فانسحب من حياة الناس وصنع لنفسه حجرة من الفلين ، واختار الفلين بالذات حتى لا يسمع صوتاً يأتيه من الخارج . . حتى لا يسمع أى حركة أبداً . . حتى ينعزل نهائياً عن هذا الكائن الذى يصنع العبث ويعيش فيه . . الكائن البشرى .

وشكسبير كانت تؤرقه نفس المشكلة ، مشكلة « عبث الحياة » وفى مسرحيته الشهيرة « هاملت » يعبر شيكسبير عن هذه المشكلة تعبيراً عنيفاً . . ولعل أبرز المواقف فى هذه المسرحية هو موقف حفار القبور ، الذى كان يقوم بعمله وهو يغنى ، كأنه يستعد لحفلة زفاف لا لاستقبال موتى ، وأخذ الحفار يمسك بالجماجم الباقية من رؤوس البشر كأنه يمسك بأحذية قديمة بالية يريد أن يتخلص منها . . ولكل جمجمة بالطبع قصة ، وتنتهى القصص مهما كانت مثيرة إلى التراب الذى لا يكاد يصلح « لسد ثغرة فى جدار قديم » . .

فهذه جمجمة « كان فيها لسان يستطيع الغناء » وهذه جمجمة محام كبير « أين سفسطته الآن وتورياته ، وقضاياه وعقوده ، وألاعيبه » ؟ . وهذه جمجمة صاحب أراض وأملاك ، وها هى « الجمجمة المحترمة تمتلئ بتراب محترم » .

ثم . . هذه جمجمة « يوريك » هذا الذى كان ممتلئاً بالحيوية والنشاط قد انتهى هذه النهاية . .

يقول هاملت مخاطباً صديقه هوراشيو .

« لهفى عليك يا يوريك ! كنت أعرفه يا هوراشيو ، رجلا لا حد لنكتته وليس له مثيل فى براعته . لقد حملنى على ظهره ألف مرة ومرة ، أما الآن . . حين أتخيل مصيره ، فما أبغض هذا الأمر إلى نفسى . . هنا كانت الشفتان اللتان قبلتهما لست أدرى كم مرة ، أين أراؤك اللاذعة يا يوريك الآن ؟ . أين قفزاتك الفرحانة وأغانيك ؟ أين لمعات فكاهتك التى كان يستلق

لها الناس على ظهورهم من الضحك ؟ » .

« أفلا يجوز للخيال أيضاً أن يتعقب أثر الإسكندر وترابه النبيل إلى أن يلقاه سداداً لزجاجة خمر ؟ » .

وهكذا يعبر شكسبير على لسان هاملت عن إحساسه العميق بعبث الحياة وبأن كل شيء إنما ينتهى هذه النهاية التافهة السخيفة . . ويتحول إلى تراب فى تراب . .

ولكن فيلسوف « العبث » فى هذا العصر وأشهر اسم ارتبط بهذه المشكلة وعبر عنها تعبيراً عميقاً واسعاً هو « ألبير كامى » . . ولقد ظل ألبير كامى طيلة حياته الأدبية يعبر عن فكرة « العبث » ويكتب رواياته ومسرحياته ودراساته الفلسفية عن هذه الفكرة ، ثم التقط الأسطورة اليونانية القديمة . . أسطورة سيزيف ، وألف عنها كتاباً كاملا . .

وفى سنة ١٩٦٠ مات فيلسوف العبث ألبير كامى وهو فى السابعة والأربعين من عمره ، كان يقود عربته ، وانقلبت العربة به فمات وحده وعاش كل من كان فى العربة .

والإنسان عند كامى غريب ضائع يعيش حياة كلها عبث ، وفى رواية شهيرة كتبها « كامى » فى بداية حياته هى « الغريب » يذهب البطل إلى السينما يوم وفاة أمه ، ويستجيب فى نفس اليوم لفتاة تدعوه إلى أن يصحبها للنزهة والحب ، ثم يقتل إنساناً لأنه وجد فى يده خنجراً يلمع ، ويحكم عليه القاضى بالإعدام ، فلا يكافح من أجل تخفيف الحكم ، ولا من أجل الدفاع عن نفسه . . إنه يأخذ كل شيء بلا مبالاة ، لأن أى

شيء لا يستحق المبالاة ، ورغم أن هذه الأحداث بالنسبة له أحداث هامة تزلزل حياته ، فهو ينظر إليها كأنها لا شيء : لا فرق بين موته وحياته ، لا فرق بين المشى فى جنازة أو الذهاب إلى السينما .

ثم لا حب ، ولا صداقة ولا علاقات بشرية . . فكل هذه العلاقات — فى نظره — لا تضيف شيئاً ولا تعطى للحياة معنى .

هذا هو « إنسان » كامى الذى يثبت أن الحياة « عابثة » « خالية من المعنى » . . إنه نخلة وحيدة قائمة فى فضاء واسع . . فى صحراء . .

* * *

ولكن كامى يتطور ويناقش هذه المشكلة مناقشة أعمق ، ثم يتجاوز « الإحساس بالعبث » ، وينتقل إلى نقطة أخرى مهمة .

فهو يؤمن بأن الحياة عبث مطلق ، وبأن الإنسان قد حكم عليه بأن يقوم بعمل تافه ، وأن يكرره كل يوم . . تماماً مثل سيزيف : يحمل الصخرة إلى قمة الجبل ، ولكنها ما تكاد تستقر قليلا حتى تتدحرج وتعود إلى الأرض .

ويقف كامى هنا ليسأل : هل معنى ذلك أن الانتحار هو الرد على هذا الإحساس بالعبث ؟ . . هل الطريق الصحيح هو أن نتخلص من الحياة ما دامت خالية من المعنى ؟ . . أليس من الأفضل ألا نحمل الصخرة إلى أعلى طالما أن ذلك لا فائدة منه ؟

ويجيب كامى على هذه الأسئلة كلها : بأنه على العكس يجب أن نتقبل الحياة ونحتملها، ويجب أن نتخلص من « الحزن الذى لا حد له » . يجب أن نتخلص من « ليلة رعبنا وعذابنا » . . وإذا كانت الحياة خالية من المعنى . . فيجب علينا نحن أن نعطيها معناها . . والطريق الصحيح هو الوعى ، فكلما ازداد وعينا ازداد احتمالنا للحياة . . « فالحقائق المؤلمة الساحقة تفنى عندما نعرفها ونعترف بها » . . وما دمنا نعرف مصيرنا ونعترف به ، فإن ذلك سوف يؤدى بنا إلى الانتصار والارتفاع على الحزن وعلى الرغبة فى التخلص من الحياة . .

وكامى يرى أن سيزيف كان يبلغ قمة المأساة عندما يعرف مصيره ويدركه . . ولكنه فى الوقت نفسه كان يسجل أعظم انتصاراته أيضاً . . فعندما ينزل من الجبل ، ويعرف أنه سيعيد نفس العمل الشاق بلا هدف ولا جدوى . . ثم يقبل مع ذلك هذا المصير ويستمر فى عمله فإنه فى الحقيقة يكون بذلك قد قرر أن يكون إنساناً قوياً ، أن يجد من مجرد محاولة الصعود نوعاً من السعادة ، إنه « يصارع لكى يرتفع إلى أعلى » « ويكفيه هذا الصراع فى حد ذاته » ليملأ قلبه « بالحماس والسعادة » .

إن المغزى الذى يقف عنده كامى هو أن العمل فى حد ذاته سعادة ، بدون هدف معين أو نتيجة محددة ، وكلما ازدادت معرفتنا بعدم وجود نتيجة أو غاية ، إننا فى هذه اللحظة نحب العمل فى ذاته ، وبدون سبب خارجى آخر . .

ولذلك فكامى لا يحارب من أجل الوصول إلى غاية للحياة ،

لأنه يائس من هذه القضية . . وهو يرفض تماماً أن يخدع نفسه بوهم من الأوهام ، ويرفض أن يكون سعيداً لمجرد أنه « جاهل لا يعرف ما يدور فى الحياة » .

فالوعى والشوق إلى المعرفة هما أهم ما يؤمن به كامى ، ولذلك فهو يحارب البلادة ، ويحارب التقليد ، ويدعو إلى استقلال النفس ، واستقلال الفكر .

ومهما كانت المأساة التى يعيشها الإنسان فعليه أن يرتفع فوقها بوعيه وشعوره ، بالاحتمال والفهم ، وكامى يضرب لنا مثلا آخر من الأدب العالمى . . إنه حكمة « أوديب » الملك فى مسرحية « سوفوكليس » المعروفة فأوديب يقع فى مأساة فظيعة ، فيتزوج أمه دون أن يعلم ذلك . . وعندما يكتشف المأساة ، يوقع بنفسه العقاب على نفسه فيفقأ عينيه ويسير فى العالم عيناه تدمعان دماً . . وتقوده بنت صغيرة . . هى ابنته وشقيقته فى الوقت نفسه ويظل سائحاً فى العالم هكذا .

وفى قمة العذاب بعد أن عرف أوديب كل شىء عن مأساته يقول :

« بالرغم من كل هذه المأساة ، فإن تقدم سنى ، ونبل روحى يجعلانى أنتهى إلى أن كل شىء حسن » .

وعندما يقول هذا الذى عانى أفظع ما يمكن أن يعانيه البشر : إن كل شىء حسن . . فذلك بالنسبة لنا حكمة كبيرة ، ودافع لكى نكتشف بين أعواد القش الصفراء زهرة تفوح برائحة جميلة . . وقد لا نجد هذه الزهرة فى العالم الخارجى . .

وعند ذلك يجب علينا أن نبحث عنها فى أنفسنا وفى وعينا وشعورنا ، بل ويجب علينا أن نصنعها أيضاً .

وفى الطريق إلى الزهرة الضائعة سيكون معنا مصباح يضىء . هذا المصباح هو حكمة الحياة وهى تعبر عن نفسها فى كلمات « أوديب » وتصرفات حامل الصخرة : سيزيف ، تلك التصرفات التى تتسم بالصبر والاحتمال .

والحكمة هى : الإيمان بالعمل . . إنه أنشودة السعادة ، لأنه يملأ لحظات حياتنا بالعمق ويجعلها صافية شفافة . . إنه سلاحنا القوى فى وجه « الروتين » و « التكرار » . . وكلما كان العمل قائماً على أساس من الوعى والإدراك ، كلما كانت مقدرتنا كبيرة على أن نسعد بالحياة سعادة داخلية عميقة ، وكلما كانت مقدرتنا أوسع وأشمل فى التغلب على ما فى الحياة الإنسانية من « عبث » و « عدم جدوى » .

وبذلك ننتصر على الصخرة .

* * *

الحب . . . لا يتكلم كثيراً

الإنسان الذى يتكلم كثيراً ، ويصافحنا فى عنف وحرارة ويؤيدنا ويجاملنا فى كل ما نقوله ، ويسأل عنا دائماً بسبب وبدون سبب . . هذا الإنسان نسميه غالبـًا إنسانـًا عاطفيـًّا .

ويحدث أن نتعرض لبعض التجارب القاسية . . تجارب من ذلك النوع الذى يكشف لنا معدن الناس ، ونلتفت حولنا ثم نكتشف شيئاً عجيباً ، فالإنسان الذى سحرنا بحرارته واندفاعه ، قد اختفى ونحن نصارع التجربة القاسية وحدنا ونمر بالأزمة العنيفة بل قد نكتشف ما هو أعجب من ذلك إذ يحدث أن تكون الأزمة التى نمر بها من صنع هؤلاء الذين ظهروا أمامنا دائماً بمظهر العاطفيين المندفعين نحونا فى حرارة ودفء . .

وهذا التناقض بين المظهر والسلوك يثير سؤالا هامـًّا : فمن هو الإنسان العاطفى ؟ وكيف تعبر العاطفة الصحيحة عن نفسها ؟

لقد أثبتت التجارب الإنسانية الكثيرة أن هؤلاء الذين يلجأون إلى زخرفة عواطفهم بالكلمات المثيرة ، والحماس الخارجى الحاد ، هم فى الحقيقة أبعد الناس عن العاطفة الصحيحة الصادقة ، فالعاطفة فى حد ذاتها جمال وزخرفة طبيعية للحياة ، وهى تعطى صاحبها اكتفاء وسعادة داخلية ، ثم تخلق فيه احتراماً لهذه العاطفة ، فلا يمكن أن يبعثرها فى مناسبات مبتذلة

بل ينتظر دائمًا الفرصة الحقيقية للتعبير عن عاطفته فى بساطة صادقة . .

يروى نهرو فى قصة حياته حادثة كانت موضع تأمله الطويل « فقد أنشأ بعض الطلاب الهنود فى لندن فى بداية هذا القرن جمعية لهم وكانوا يناقشون فى هذه الجمعية السياسة الهندية بشكل بالغ التطرف . . كانوا دائمًا متحمسين متطرفين » .

أما نهرو فكان قليلا ما يتكلم فى هذه الجمعية ، ولذلك كان هؤلاء الطلاب المتحمسون يوجهون إليه اللوم دائمًا بسبب صمته وعدم حماسه ، ثم مرت الأيام وعاد هؤلاء الطلاب ومعهم نهرو إلى الهند فاكتشف نهرو بعد ذلك شيئًا عجيبًا .

يقول نهرو :

« لقد وجدت هؤلاء المتحمسين المتطرفين بالذات قد أصبحوا موظفى إدارة الانتداب الإنجليزية فى الهند ولم يلعبوا فى الحركات السياسية أى دور فعال ، أين راح سخطهم على الإنجليز ؟ أين ذهب حماسهم الغائر العنيف ؟ . . كل هذا قد تبدد على المكاتب الفاخرة التى أعدها الإنجليز لهم فى الهند »

والذى لم يقله نهرو أنه هو الصامت الذى لم يكن يتكلم كثيراً قد دخل معركة الهند بكل قواه ، وتعرض للسجن وللأذى سنوات طويلة ، وكان فى طليعة حركة الاستقلال الهندية الكبرى ، التى كان قلبها غاندى ، وكان نهرو عقلها المفكر : يشارك فيها ويقودها ويدفع حياته ثمنًا لانتصارها الكامل .

فالمتحمسون الصاخبون الذين كانوا يضربون المناضد بأيديهم

كانوا فى الحقيقة هم أقل الناس عاطفة نحو الهند كانوا مثل الطبل يرتفع صوته وهو من الداخل أجوف ، أما نهرو فكان يحمل عاطفة عميقة ، وهى بسبب عمقها بسيطة لا تلجأ إلى الزخارف والمبالغات ، وقد ظلت هذه العاطفة كامنة هادئة تنتظر الفرصة المناسبة لتظهر بقوتها الحقيقية فى الظروف القاسية، والتجارب الكبيرة .

أما العاطفة التى كان يعبر عنها هؤلاء الطلاب الهنود فقد كانت فى الحقيقة صورة من « حب النفس » وقد اتخذت هذه العاطفة صورة جذابة هى : حب الوطن . . وكل محاولتهم المتحمسة كان دافعها هو التظاهر ، وإبراز تفوقهم أمام الآخرين ، إنهم يريدون أن يكونوا ذوى مظهر له تأثير وسحر ، حتى يعلو بذلك اسمهم ، وترتفع أهميتهم الشخصية .

وهذا شأن كل عاطفة غير ناضجة .

أما العاطفة الناضجة الصادقة ، فإنها تتحرر من العناصر الدخيلة الزائفة حتى تصبح عاطفة سليمة ، وحتى تعبر عن نفسها تعبيراً مناسباً .

وأرقى مقياس للعاطفة الصادقة هو « ضبط النفس » . . حتى لا ينساق الإنسان مع أوهامه ، ومع مشاعره الأولى التى ينقصها النضج والتجربة ، حتى ولو كانت هذه المشاعر الأولى عنيفة . . فمن الأفضل أن يكون لهذه المشاعر « لجام » يحد منها حتى تسير بقوة نحو هدف ، ولا تكون جامحة عديمة الاتجاه تجرى فى أى طريق . .

فالاستسلام للعاطفة الزائفة كما يقول أحد علماء النفس « يحدث فينا انطباعات مزورة عن الأشياء الخارجية . . كما أن هذا الاستسلام هو نوع من الخداع الذاتى ، وإحدى درجات الضعف العاطفى » . . فصاحب العاطفة القوية الثابتة التى لا يصيبها تبدل وتغير سريعان لا يلجأ أبداً إلى المبالغات أو يهتم بها وإنما يفعل ذلك صاحب العاطفة الضعيفة ، إنه يلجأ إلى الزخارف والمبالغات والطقوس الكثيرة التى تخلو من البساطة والوداعة وهما علامتا العاطفة الصادقة الناضجة .

وهذا هو السبب الذى يجعلنا نرى هؤلاء الذين يعلنون عواطفهم بعنف وهم يسلكون سلوكاً مناقضاً لعواطفهم الظاهرة التى أعلنوها من قبل عندما يتعرضون لتجربة عميقة .

إنهم فى هذه الحالة أشبه بالوجه القبيح الذى أخفى نقصه بالروج والمساحيق والعطور . . ثم عندما تذوب هذه الوسائل المصطنعة يبدو الوجه على حقيقته خالياً من الجمال والوسامة .

* * *

عندما نفتح الصفحة الأولى من الرواية الرائعة « الساعة الخامسة والعشرون » التى كتبها « كونستنتان جيورجيو » نجد البطل وهو يتهيأ لسفر بعيد ، ورحلة طويلة ، ويخفق قلب حبيبته البسيطة التى تشعر نحوه بعاطفة عميقة كبيرة وهى لا تستطيع أن تقاوم قرار رحلته بعيداً عنها ، رغم أن حياتها بدونه لا معنى لها ، ولا طعم . . إنه بالنسبة لها جمال الحياة وعذوبة الدنيا وروعة الطبيعة .

وترجو البطلة حبيبها أن ينتظر قليلا ، إنها تريد أن تحدثه فى أمر هام قبل أن يرحل وبعد تردد يستجيب البطل ، ويجلس على العشب ، ثم يسترخى قليلا ويستعد لسماع الكلمات الحامة التى تريد حبيبته أن تقولها له وتبدأ هذه الحبيبة البسيطة الصادقة فى الحديث . . فما هو الشيء الذى تريد أن تقوله ؟ إنها تبتسم فى وداعة حزينة ثم تقول وهى تعبث بشعر رأسه :

« إن السماء صافية والنجوم جميلة » . . وتواصل حديثاً من هذا النوع الذى يشبه الثرثرة التى لا قيمة لها . . إنها لم تقل له : أحبك ولم تحدثه عن رحلته الطويلة البعيدة الخطيرة التى ربما لا يعود منها أبداً ، ولم تحدثه عن رأيه فى مستقبلها . . ماذا تفعل بعده . . ولم تطلب منه أن يعدل عن رحلته . . ولم تذرف دمعة .

كل ما قالته هو ثرثرة بسيطة تريد بها أن تقضى معه لحظة ، ومن خلال هذه الثرثرة المفاجئة تشعر كم تحبه بدون أن تقول كلمة حب . .

إن أقصى ما تتمناه هو أن تقضى معه لحظة أخرى . . مجرد لحظة تملؤها بأى شيء ، فهذه اللحظة التى لا أهمية لها من الناحية الزمنية ، لها أهمية عميقة من الناحية النفسية . . إنها لحظة ثمينة غالية .

ويرحل الحبيب بعدها . . وتشعر هى كأنها حققت شيئًا ، كأنها امتلكت شيئًا .

هذه هى العاطفة العميقة . . تعبر عن نفسها ببساطة وبدون

صخب أو ضجيج وبأبسط الصور .

وما ينطبق على عاطفة الفرد ، ينطبق أيضًا على عاطفة الجماعة .

وهناك فكرة شائعة هى أننا شعب عاطفى يتميز فيه الإنسان بالحرارة والانفعال الشديد .

وقد لاحظت الباحثة « سنية حمادى » فى كتابها عن « المزاج العربى والشخصية العربية » كثرة الطقوس الاجتماعية العنيفة التى تعبر عن عواطفنا الخاصة فى الريف ، فهناك مثلا لابد أن يمر « جهاز » العروس بالقرية كلها ليراه جميع الناس . تحمل الفتيات أجزاء هذا الجهاز ويمشين فى طابور طويل .

هنا يتضح أن عاطفة الفرح تعبر عن نفسها بمظهر اجتماعى واضح . . أى أن « المظهر الاجتماعى » يسبق ويفوق « المظهر النفسى » الإنسانى الذى يتصل بنفسية العروسين وحدهما ، وهذا « المظهر الاجتماعى » للفرح هو مظهر صاخب لا علاقة له بالشعور العميق الذى يستقر داخل الإنسان ويدفئ قلبه ومشاعره .

وتلك هى القاعدة الشائعة للعواطف فى البيئات الزراعية فالطقوس الخارجية أهم من المشاعر الداخلية الهادئة . . أهم من العاطفة الذاتية التى يشعر بها الإنسان وحده ، أو مع عدد قليل من الناس هم الذين يقتربون من قلبه وأحاسيسه العميقة .

فالاحتفال بميلاد طفل يأخذ مظهراً اجتماعيـًّا .

والموت يتحول الحزن فيه أيضًا إلى ظاهرة اجتماعية . . وفى

البيئات الريفية تبرز ظاهرة « الندب » الذى تقوم به سيدة تحترف البكاء على الراحل — أى راحل — وإعلان فضائله .

ومن مظاهر هذه النزعة العاطفية أيضًا الانفعال السريع ، سواء كان هذا الانفعال غضباً أو سروراً . وكثيراً ما تؤدى كلمات بسيطة — فى هذه البيئات — إلى مشاكل كبيرة عنيفة . كلمة قد تؤدى إلى طلاق زوجين اشتركا معًا لفترة طويلة فى رحلة الحياة ، وكلمة قد تؤدى إلى معركة تنتهى بالقتل وكلمة أخرى قد تفصل بين صديقين مدى العمر .

وذلك بسبب التركيز الشديد على النفس ، واعتبار أى مناقشة أو تعليق خارجى هجومًا على « الذات » يستحق الاستعداد للدفاع ، والانفعال بهذه الطريقة يرجع إلى ضيق البيئة وقسوة الحياة ، فليس هناك أمام الإنسان تلك الوسائل الإنسانية التى تجعل صلته بالعالم عميقة ، وإحساسه بالناس والوجود رحيبًا ، وتزيل التأثر السريع العنيف بالأشياء العرضية السطحية . . وهذه العوامل هى الثقافة بشتى فروعها والتجربة الواسعة ثم رحابة الحياة وانساعها .

وفى البيئات الزراعية تبرز هذه العاطفة بعنف ، فالإنسان فيها لم يتعود تلك الصفة الأساسية للعاطفة الناضجة وهى « ضبط النفس » .

وهذه البيئات نتيجة لضيقها وبساطتها واستقرارها الدائم وعدم وجود فرصة واسعة للتغير والابتكار فيها قد وسعت من سلطان تلك النزعة التى ينقصها النضج ، وأدت هذه النزعة إلى

تأخر النظرة العلمية التى لم تظهر عندنا بصورة قوية إلا أخيراً ، ففى الماضى كنا نميل دائماً إلى التفسير العاطفى للوجود ولا نبذل جهداً فكرياً يخرجنا من سلطان الدهشة والإعجاب ، إلى نطاق التفسير والتفكير .

هذا هو ميراثنا العاطفى القديم . . عاطفة زائدة غير ناضجة ولا متزنة ، تنزع للحياة فى المظاهر الاجتماعية أكثر مما تعيش فى نفس الفرد نقية شفافة ، وتعتمد على الزخارف الكثيرة فى الكلمات والتصرفات ولا تعتمد على الشعور الشخصى الذى تحس به نفس الإنسان عن اقتناع وصدق ، كما أنها ترتكب أى خطأ . . وتلفه فى ستار حريرى اسمه : العاطفة .

وقد بدأت حياتنا تتجه نحو نوع آخر من العاطفة أرقى وأنضج . . نوع مختلف تماماً عن ميراثنا العاطفى القديم . . فقد تسللت الآلة إلينا ، وبدأ المصنع ينافس الحقل ، وظهر إنسان جديد فى بلادنا له مواعيد منتظمة ، وعمل متخصص محدد ، وعلاقات اجتماعية لها نظامها أيضاً . كذلك بدأت الثقافة تنتشر وتدخل إلى بيئات جديدة عن طريق الكتاب والجريدة والراديو والتليفزيون .

وكل هذا سيؤدى إلى تنظيم « الدورة النفسية » للمجتمع ، ويرتفع به إلى مستوى العاطفة العميقة الأصيلة لا العاطفة الكاذبة المتحمسة الصاخبة التى لا تصمد أمام تجربة الحياة .

إن العاطفة الناضجة بالنسبة للفرد والمجتمع هى التى تتركز فى قول الكاتب الأمريكى « ثورو » : اختصر . . اختصر . .

فالإنسان يجب أن يعيش حياة بسطية وعالية الهدف فى الوقت نفسه » . . فأصحاب العاطفة الكبيرة هم فى الوقت نفسه أصحاب العاطفة البسيطة . . هم الذين يراقبون مشاعرهم فلا يقولون كل ما يحسون به ، بل يقولون أجمل وأهم ما يحسون به فى أبسط صورة . . كلماتهم قليلة ولكنها غنية سهلة وعميقة .

فالسلوك الإنسانى ، والعلاقات بين الناس كالحب والصداقة وكذلك الفن باعتباره تعبيراً عن العاطفة . . كل هذه الأشياء تخضع لقاعدة واحدة حتى تكون راقية ، هى قاعدة « ضبط النفس » ويجب أن تتخلص كلها من المبالغة والزخارف وتنتقل من الصوت المرتفع وكثرة الكلام والثرثرة ، إلى الهمس والعزف النقى الذى يختار الموسيقار نغماته بأناقة ورقة وعمق .

بهذه الطريقة نصبح عاطفيين حقاً .

أبى . . . إنى أكرهك

بدأ يبكى بصوت خفيض ، ثم ارتفع صوته شيئاً فشيئاً حتى ملأ جوانب الحجرة ، وأصبح بكاؤه أشبه بالصراخ أو بالعويل . . . ولم يكتف الطفل الصغير بدموعه وصوته المرتفع ، بل أخذ يدب فى أرض الحجرة بقدمه ، ويضرب الحائط بقبضة يده الرقيقة الصغيرة . . . وفى الحجرة كان الأب والأم يوشكان على النوم ، وكان الليل قد انقضى ثلثه الأول ، وحان الموعد الذى تعود الأب أن ينام فيه ، كان هذا الأب واحداً من ذلك النوع من الرجال الذين يفرضون إرادتهم على أفراد البيت . . . إنه قوى الشخصية حاسم الكلمة ، لا يحب معارضة الآخرين ولا يقبلها ، أما عاداته فثابتة راسخة ، وعلى الجميع أن يقبلوها وأن يحاولوا التلاؤم معها . . . وعلى العكس من ذلك كانت الأم ، إنها رقيقة عاطفية مطيعة لزوجها ولا تعارضه على الإطلاق ، وهى تدلل أبناءها وتداعبهم كثيراً إذا ما كان الوالد بعيداً عن البيت ، أما فى حضوره فلا كلمة إلا ما يقول ، ولا صوت أعلى من صوته . . . إنها تنسى شخصيتها لتكون مطيعة لذلك الأب ، منفذة لأوامره . . .

واشتد بكاء الطفل فقام أبوه إليه ، وسأله فى شدة وحزم :

— ماذا تريد ؟

— لا شىء . . .

– إذن لماذا تبكى ؟

– أريد أن أشرب

وقدم له الأب كوبًا من الماء ، ولكن الطفل لم يكف عن البكاء . . أخذه والده ووضعه فى سريره ، وطلب منه فى كلمات قاسية حازمة أن ينام ، ولكن الطفل استمر فى بكائه وصراخه . . وعاد إليه الأب ولم يتكلم هذه المرة . . وإنما أخرج الطفل من سريره وحمله إلى الشرفة حيث تركه بعض الوقت وحيداً ، وليس على جسده إلا رداء رقيق ، وأغلق باب الشرفة . . تاركًا ذلك الطفل بين الفزع والظلام والإحساس الغامر بالقسوة . . أما الأم فقد وقفت موقفًا سلبيًّا . . لم تعترض ، ولم تقاوم . . ولم تستطع أن تنتزع الطفل من يد أبيه ، بل لم تفكر أن تعبر عن سخطها على تصرف الأب . . .

امتلأت نفس الطفل بالرعب ، وكف عن البكاء ، ووقف فى شبه ذهول ، وقف فى ظلام الشرفة لفترة من الوقت ، ربما كانت قصيرة ، ولكنها كانت بالنسبة إليه طويلة قاسية . . وكبر الطفل وأصبح شابًّا معروفًا بشخصيته الخاصة ، وميوله المتميزة . . كان اسمه « فرانز كافكا » . . وأصبح « فرانز » بعد ذلك أديبًا وكاتبًا كبيراً . . لقد تقلبت عليه الأحداث بعد ذلك ، وحملته الأيام إلى مراحل جديدة من العمر غير مرحلة الطفولة ، ولكنه لم ينس أبداً ذلك الحادث الذى وقع له فى طفولته .

ربما لو وقع هذا الحادث لطفل غير هذا الطفل ، ومن

أب غير هذا الأب لكانت الأيام قد استطاعت أن تمحوه وأن تجعل منه ذكرى طريفة من ذكريات الوعى الأول بالحياة . . ولكن الحادث الصغير كان جزءاً دالا من سلوك الأب وشخصيته العامة ، ولم يتغير هذا الأب عندما تغير أبناؤه وتقدمت بهم السن وأصبحوا فى مرحلة الوعى الذاتى المستقل ، بل ظل يتبع نفس السلوك ، ويعامل أولاده وعلى رأسهم « فرانز » نفس المعاملة القاسية التى لا تعرف اللين ، ولا تعرف الحنان والتى تدل على شخصية واثقة بنفسها ثقة سدت عليها منافذ الإيمان بالآخرين . . فليس هناك فى نظر هذا الأب من يدرك الأمور إدراكاً صحيحاً إلا هو ، وليس هناك من سلوك صائب إلا سلوكه ، وليست الحياة كما يفهمها أولاده ويحبونها ، ولكنها كما يفهمها هو ، وكما يشعر بها . . فإذا اختلف معه أو اختلف عنه واحد من أبنائه ، فإن هذا « الاختلاف » ليس له معنى إلا الخطأ وسوء التقدير والشعور . . وكانت شخصية الوالد مدعمة بعدة عناصر . . فهو تاجر يهودى بدأ حياته من السفح ثم أصبح باجتهاده ومثابرته وقسوته على نفسه تاجراً ناجحاً غنيًّا ، ولم يكن ضعيف البنية ، بل كان قوى الجسم ، ممتد القامة ، عريض الصدر . وكان تفوقه الجسمانى واضحاً إلى أبعد الحدود ، ومن هذه العناصر ، أو من هذين العنصرين على وجه التحديد اكتسب الأب ثقة كبيرة بنفسه وأصبح يرى فى شخصه مثلا أعلى ينبغى أن يحتذيه الأبناء .

كان هذا الأب يقول لأبنائه :

— « إنكم تعيشون حياة جميلة أكثر مما يجب » . .

ثم يعقب على ذلك قائلا :

— « حين كنت فى السابعة من عمرى كنت أتنقل من قرية إلى قرية دافعًا أمامى عربتى الصغيرة ، كنا ننام جميعًا فى حجرة واحدة . . وكانت تملأنى السعادة حين نعثر على البطاطس لنتعشى . . كنت ألبس فى زمهرير البرد ملابس ممزقة خلقة حتى إن القروح التى أصابت أطرافى ظلت سنوات طويلة لا تلتئم . . . كان يتعين علىّ بعد أن صرت صبيًّا أن أذهب لأعمل فى أحد المحلات التجارية . . لم يكن أهلى يعطوننى شيئًا من النقود ، بل إننى كنت أرسل إليهم ما يحتاجون إليه منها بعد أن التحقت بالجيش . . ولكن ، من يدرك هذه الحقيقة فى هذه الأيام ؟ هل يستطيع أبناء اليوم أن يفهموا ذلك » .

بهذه الطريقة كان الأب « هيرمان كافكا » يتحدث إلى أولاده . . إنه معتز بنفسه ، فخور بها ، مندهش لضعف شخصية أولاده وعجزهم عن بلوغ ما بلغه هو من تقدم ومن تفوق فى مجال الحياة العملية .

ولكن « فرانز » الابن ، خرج إلى الحياة أديبًا فنانًا ، ولم تكن علاقته بالأدب والفن عن طريق القراءة والكتابة فحسب ، بل كانت إحساسًا عميقًا مسيطراً على شخصيته كلها . . . لقد كان يعالج كل أمور حياته بتلك الحساسية المرهفة الدقيقة الذكية فى الوقت نفسه ، واستطاع عن هذا الطريق أن يصل إلى مستوى كبير رائع من الفن ، فأصبحت رواياته وقصصه

القصيرة من أروع ما أنتجه القلب البشرى فى القرن العشرين ، وأصبح فن كافكا شاهداً من أبرز الشواهد وأصدقها على ما يعانيه الإنسان الحديث من تمزقات وآلام ومآس عديدة . وينظر النقاد إلى أدب كافكا على أنه مثال حى لما يسمى « بالأدب الأسود » أى أدب التشاؤم والحزن ، أدب الكآبة والأسى . . . على أن أحزان كافكا ليست نابعة من السطح ، وليست نابعة من الآلام العادية القريبة ، وليست نابعة من العجز . . ولكنها أحزان عميقة قادرة ، تمزق الستار الخادع الذى كانت الحياة تضعه على نفسها أمام الناس فى القرن العشرين ، فإذا ما ظهر فنان قادر حساس ، استطاع أن يمزق ذلك الستار واستطاع أن يقول : إن حياة أوربا فى النصف الأول من القرن العشرين هى حياة تمزق . . هى مأساة .

هذا الفنان الذكى الحساس ، لم يخدع نفسه لحظة بوهم ، ولذلك فقد واجهه الفشل بعد الفشل فى كثير من مشروعات حياته ، وانتهى به الأمر إلى أن مرض بالسل حيث مات فى سن الواحد والأربعين فى سنة ١٩٢٤ . . وكانت هناك ثلاث قضايا رئيسية فى حياته ، الأولى هى قضية الحياة فى ألمانيا فى مطلع القرن العشرين ، لقد كانت حياة مريرة ، يسيطر عليها التنافس الفردى ، وليس فى قلوب الناس نحو بعضهم أى نوع من الحنان . . الناس كالسمك يأكل الكبير الصغير ، ويأتى القادر على الضعيف ، وليس هناك حدود للثراء ، وليس هناك حدود للفقر . . . تستطيع أن تصبح صاحب ملايين بأى طريقة من

الطرق ، سواء كانت عليها علامة الشرف ، أم كانت خالية من هذه العلامة . . وينتج عن هذا بالطبع نوع قاس مرّ من أنواع الحياة ، ولا يمكن أن تستريح الحساسية المفرطة الذكية لهذه القسوة ، ولهذا الصراع الخالى من الجانب الإنسانى المتناسق السليم . هذه هى القضية الأولى فى حياة « كافكا » . . . أما القضية الثانية فهى قضية حبه . . فقد خطب فتاة بعد حب فى سنة ١٩١٤ . . وبعد فترة قليلة تمزق حبه . . ويمكننا أن نتصور تلك الهوّة التى حدثت بينه وبين حبيبته وخطيبته . . لا شك أن الاختلاف بينهما كان أساسيًا ، هو يفكر فى كل شىء ، ويشعر بكل شىء . . وكان كل شىء على غير ما ترتضيه الفطرة الإنسانية الحساسة السليمة فى مثل ذلك المجتمع الألمانى القاسى الذى كان يعيش فيه « كافكا » . . . ولكن ماذا يعنى الفتاة من هذا كله ؟ . . إن كافكا فى نظرها محام ، وكاتب ، وهو ابن لرجل صاحب ثروة كبيرة واسعة ، ماذا يعنيها إذا عاشت هى سعيدة ألا يكون الناس سعداء ؟ . . ماذا يهمها من آلام الدنيا طالما أن هذه الآلام لا تستطيع أن تبنى لنفسها عشًا فى سماء حياتها ؟ . . إنها تفكر فى نفسها وفى خطيبها وحسب ، أما هو فيفكر فيما هو أبعد ، إنه يرى الدنيا تحت « ميكروسكوب » حساسيته ، فيرى كل شىء ويراه حزينًا قاسيًا فيفكر ويتأمل ويأسى . . . وتكون النهاية بالطبع أن « يفشل » حبه . . . وتتركه خطيبته إلى حيث تجد كوخًا فيه طمأنينة ، وليس فيه ذلك القلق المخيف العنيد ، ومرة ثانية

يحاول أن يتزوج ، ويجد حبًّا جديداً ولكنه سرعان ما يفشل ، وعند فشله الثانى يكتشف أنه مريض بالسل .

فقضية « الحب الفاشل » قضية رئيسية هامة فى حياة هذا الفنان . .

تبقى قضية ثالثة ، هامة وأساسية ، هى « علاقته بوالده » .. تلك العلاقة السيئة المريعة التى خلدها كافكا فى رسالة كتبها ذات يوم إلى أبيه .. وسلمها لوالدته الرقيقة النبيلة لتعطيها لهذا الوالد القاسى المعتز بنفسه . . ولكن الأم أخفتها حتى مات الأب وحتى مات الابن أيضًا ، وذهب صديق الفنان ورفيقه الناشر المثقف « ماكس برود » ليجمع أوراقه ، ويقرأ وصيته واستطاع أن يجد الرسالة فى هذه الأوراق فنشرها وكانت طويلة كبيرة فى حجم كتاب صغير . . أما الوصية التى تركها كافكا قبل أن يموت لصديقه « ماكس برود » فهو أن يحرق كتبه كلها ، ويحرق أوراقه جميعًا فليس فيها فائدة ولا نفع وليس لها قيمة فى نظره . . . ولم ينفذ « ماكس » وصية صديقه الراحل ، بل كان أحرص الناس على نشر إنتاج كافكا وتقديمه إلى مسرح الثقافة الأوربية بل والثقافة العالمية حيث احتل كافكا مكانًا كبيراً فى الأدب الحديث . . وخصوصًا بعد وفاته .

إن رسالة كافكا إلى والده هى درس كبير من دروس الحياة الإنسانية . إنها موجهة فى الظاهر إلى والد « كافكا » ولكنها فى حقيقتها موجهة إلى كل والد ولو قرأها الآباء لتعلموا الكثير عن فن الأبوة وعرفوا إلى أى حد يمكن أن يكونوا فى حياة

أبنائهم شيئاً جميلا رائعاً فى بعض الأحايين وشيئاً قاسياً مؤلماً فى أحايين أخرى . فدور الأب فى حياة الإنسان يبدأ منذ اللحظات الأولى لخطواته فى طريق الحياة بل إن أول « عالم » يلقاه الإنسان ، هو « عالم الأب » فإذا كانت الأم هى مصدر بقاء الابن لأنها تغذيه وترعاه وتساعده على النمو والاستمرار ، فإن الأب هو الواسطة بين الابن والمجتمع ، إن الأب هو الذى يمثل العالم الخارجى ، فتصرفاته وسلوكه ومعاملته لأبنائه هى الخطوط الأولى والأساسية التى تعطيهم « فكرة الحياة » . . وعلى مدى نضج الأب وسلامة شخصيته وتصرفاته تتحدد شخصية الابن فى المستقبل ، ونموذج والد « كافكا » نموذج شائع معروف فى شتى المجتمعات .

ولنعد إلى رسالة كافكا لنرى فيها تجربة ذلك الفنان العظيم مع والده ، إنه يبدأ الرسالة بقوله :

« منذ عهد غير بعيد سألتنى عما يخيفنى منك ، فلم أدر كعادتى معك بم أجيب ، ويرجع ذلك من ناحية إلى ذلك الخوف الذى يملك علىّ نفسى إزاءك ، وإلى أن دوافع هذا الخوف كثيرة متعددة يصعب الكلام عنها فى دقة وتفصيل » . . فالعلاقة بينهما تقوم على الخوف . . . خوف الابن من أبيه وهذا هو الأساس الأول الذى أدى بعد ذلك إلى عدد من النتائج على جانب كبير من الخطورة ، وهو من ناحية أخرى نتيجة لسلوك الأب وشخصيته الخاصة . فالأب لا يحاول أن يفهم نفسية الطفل فهماً صحيحاً ، بل يعامله كما لو كان نداً

له . . والمثال على ذلك تلك القصة التى رويناها فى أول هذا المقال ، عندما أراد « كافكا » أن يشرب وبكى وصرخ ، وكان عقابه أن وضعه أبوه فى الشرفة ، وسط الظلام والبرد دون رحمة أو حنان . . ولنسمع كافكا يقول عن تلك الحادثة فى رسالته إلى أبيه :

« . . من المؤكد أن العطش لم يكن الدافع الوحيد للبكاء ، ولكننى كنت أبكى لكى أثيرك من ناحية ، ولكى أتسلى من ناحية أخرى ، ولما لم تفلح تهديداتك العنيفة المتكررة فى إسكاتى أخرجتنى من سريرى ، وحملتنى إلى الشرفة حيث تركتنى بعض الوقت وحيداً وليس على جسدى إلا رداء رقيق ، وأغلقت باب الشرفة دونى » . .

هذا هو الطفل الحقيقى . . إنه يبكى أحياناً للإثارة ، وأحياناً للتسلية . . إنه يريد أن يثير انتباه الأب ، يريد أن يشعر بوجوده ، وبشخصيته من خلال اهتمام الآخرين به . . وهذا حق من حقوق الطفل ، بل وجزء من الطبيعة البشرية السليمة فى تلك المرحلة من العمر وعلى الأب أن يقدرها تمام التقدير ، ويعالجها بطريقة سليمة . . أما إذا عالجها على أن الطفل يبكى بدون سبب معقول ، فإن النتيجة ستكون أن يقف منه موقف العقاب ، وقد يشتد هذا العقاب فيؤدى إلى آثار سيئة ضارة .

ما هى تلك الآثار السيئة الضارة ؟

إن كافكا يجيب عن ذلك فى رسالته :

« لقد كان ذلك كافياً ولا ريب لكى يجعل منى مخلوقاً

مطيعاً فى الظاهر ، وإن كان قد سبب ضرراً آخر خفياً ، فلم يكن ذهنى فى ذلك الوقت يستطيع أن يدرك العلاقة بين طلبى للماء بدون مبرر ، وبين إخراجى إلى الشرفة ، والأمر الأول كان يبدو طبيعياً جداً فى نظرى ، ولكن الثانى كان مريعاً ومخيفاً ولا شك ، ولقد ظللت سنين طويلة أتألم فى مرارة كلما تذكرت كيف أن ذلك الرجل الجبار الذى هو أبى ، وهو الملاذ الأخير لى ، كان يستطيع أن يخرجنى من السرير بدون مبرر قوى أثناء الليل ليتركنى فى الشرفة مدللا بذلك على تفاهتى وضآلة شأنى » .

« بيد أن هذا الشعور بالتفاهة الذى كان متواضعاً فى أول الأمر والذى كنت أستمده من تأثيرك علىّ ، استفحل خطره فيما بعد ، حتى سيطر تماماً على شخصيتى » .

إن فهم نفسية الطفل مسألة هامة إلى أبعد حد ، وإذا كان ذلك مطلوباً من المتصلين بالطفل عموماً فهو مطلوب على وجه الخصوص من الأب . . . إنه واجبه الأول ومسئوليته الكبيرة . . والنقطة التى يشير إليها كافكا وهى عدم الثقة بالنفس ، والإحساس الذاتى بأن الإنسان لا قيمة له ولا أهمية . . . هذا النوع من الشعور الذى يسيطر على الشخصية . . ينشأ عادة فى الطفولة ، وهو ينشأ على التحديد نتيجة لعلاقة الأب بابنه . . والشعور بالتفاهة ، وانعدام الثقة فى النفس ، شعور مدمر قاتل قد يؤدى إلى انهيار الشخصية تماماً ، وهو يؤدى أحياناً إلى نوع مرير من التمزق والقلق ، مثل ذلك الذى سيطر على كافكا

وأدى فى النهاية إلى مرضه بالسل ، وإلى وفاته فى سن الواحد والأربعين وفى بعض الأحايين يصبح انعدام الثقة بالنفس مفيداً ، لأنه يدفع إلى العمل والاجتهاد رغبة فى تعويض النقص الموجود فى الشخصية ، ولكن ذلك لا يكون إذا كان الشعور بانعدام الثقة غائراً وعميقاً فى النفس . . إن قدراً محدوداً معقولا من هذا الشعور هو وحده الذى يفيد الحياة الإنسانية السليمة ، أما الإسراف فيه فدمار ، أو طريق إلى الدمار .

وربما ترجع مسئولية هذا الشعور إلى الظروف أو التجارب ولكن مرجعها الأساسى فى حياة الإنسان هو : شخصية الأب ، ومن هنا كان واجب الآباء كبيراً . . إن عليهم أن يفكروا كثيراً فى علاقاتهم بأبنائهم وأن يتخلوا عن جعل الأبناء حقلا للتجربة ، أو مجالا لتعويض ما ينقصهم فى حياتهم . كأن يتحول الأب المستضعف فى المجتمع إلى ديكتاتور مع أبنائه . . إنه تعويض مريض . . أما التعويض السليم فهو أن يلتمس الأب قوته فى تقوية أبنائه ومساعدتهم على الحياة الطبيعية .

ونقطة أخرى على غاية من الأهمية يثيرها « كافكا » فى رسالته إلى أبيه ، يقول الكاتب الفنان :

« لقد كان محرماً علينا نحن أن نعرق العظام ، أما أنت فكنت تعرقها ، ولقد كان محرماً علينا نحن أيضاً أن نلعق الخل ، أما أنت فكنت تلعقه ، كنت ترى أنه يجب تقطيع الخبز قطعاً متساوية نظيفة ، ولكنك لم تكن تتورع عن تقطيعه بسكين ملوث بالصلصة ، كنت تحذرنا من أن تقع الفتات

منا على الأرض ، ولكن عقب الطعام كنا نرى كثيراً من الفتات المتناثر حيث كنت تجلس ، كنت تقول إن المرء يجب أن يتفرغ على المائدة للأكل فقط ، ولكنك كنت تنظف أظافرك وتقلمها ، وتبرى الأقلام وتنظف أذنيك بالخلال التى تستخدم لتنظيف الأسنان بعد الأكل » .

وإذا كان هذا المبدأ سليماً فى كل الأمور ، فهو أكثر سلامة فى ميدان الأبوة ، فالأب هو المدرسة الأولى ، والكبرى التى يتعلم فيها الابن ، وقد لا يتمكن الابن من أن يكتشف التناقض بين القول والعمل فى حياة مدرّسه فى المدرسة ، أو فى حياة زميله ، أو جاره ، . . ولكنه سيتمكن حتماً من كشف هذا التناقض فى حياة والده . لأنه يعيش مع والده وقتاً طويلا وفى ظروف تمكنه أن يعرف إذا ما كان أبوه صادقاً فيما يقوله ، أم أن أقواله ليست إلا مجرد ادعاءات .

لقد مات كافكا حزيناً متألما ، مات بعد أن قاسى حياة مريرة حزينة . . لم يهنأ فيها بعالم سليم ، ولم يهنأ فيها بحب ، ولم يهنأ فيها بأب يتعاطف معه ويحترمه وبعد أن مات كافكا بسنوات جاء « هتلر » إلى الحكم فقرر أن يحرق كتب كافكا ويصادرها ، ونفذ هذا الأمر بالفعل ، وكان السبب الحقيقى ، هو أن كافكا يصور الظلام النفسى الذى يمزق الناس ، وكان هذا التصوير هو التعبير الحقيقى عن واقع الناس فى ألمانيا قبل أيام هتلر وفى أيامه أيضاً أما السبب الظاهر : فهو أن كافكا يهودى ، والحقيقة التى كان يعلمها هتلر تماماً هى أن كافكا

كان إنسانياً ، شامل النظرة ، بعيداً كل البعد عن الأفكار الضيقة المحدودة .

لكن عذاب كافكا قد منحنا أشياء عظيمة . . لقد منحنا عزاء نفسياً ، ودعوة إلى الحياة فى انسجام وتناسق ، وكراهية للمتناقضات المفزعة التى يغلف بها الناس حقيقة الحياة . . أما رسالته إلى والده فهى عمل فنى صادق ، وهى إلى جانب ذلك درس اجتماعى ذكى يعلمنا فن الأبوة الحقيقى . . على أنه فن من الفنون السامية الصعبة الخطرة فى الوقت نفسه ، إنه فن يحتاج إلى جهد ومثابرة وتواضع حتى يكون أساساً لخلق أشخاص إيجابيين أصفياء لا طريقاً إلى التعقيد النفسى والدمار وضيعة الإنسان فى الحياة .

الفهرس

تم طبع هذا الكتاب بالقاهرة
على مطابع دار المعارف ١٩٦٣

أبريل ١٩٦٣ الثمن ٣٠ مليماً